عبد الرحمن مجيد الربيعي

حدث هذا في ليلة تونسية

مختارات قصصية

الكتاب: حدث هذا في ليلة تونيسية (مختارات قصصية)
الكاتب: عبد الرحمن مجيد الربيعي
الطبعة: **2017**



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575
فاكس : 35878373
http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

الربيعي ، عبدالرحمن مجيد
حدث هذا في ليلة تونيسية / عبد الرحمن مجيد الربيعي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
.. ص، .. سم.
الترقيم الدولى: **978 -977 -446 – 348 – 4**
أ – العنوان رقم الإيداع : **2017/3907**

حدث هذا في ليلة تونيسية





الدرب العسير

الزمان: لحظات من شتاء 1957.
المكان: سجن في مدينة "ن" في جنوب العراق.

"الأيام الضبابية ستكنسحها الشمس، وستعلو الأشنودة".

- لا، لن أهدا بعد، إن صفعته تعذبني، أصابعه الصفراء تركت أخاديدها على صفحة خدي. التافه المذعور ذو النظرات المزروعة بالجبن والنذالة، الذي يخاف السير منتصبا في وسط الشوارع. فيلازم الأرصفة وظلال البيوت....لا.

القضبان تنغرس في عينيه، الأغنية الجنوبية لاتنقطع، المفاتيح تتدلى من محزم رخو، الفم العريض يتثاءب ببلادة، الرعاة ما زالوا يزمرون.

- ألا تريد أن تلعب؟ لاتصمت هكذا، إننا هنا لا نملك غير الدومينو والثرثرة، وأنت لا تجيد الثرثرة، تعتصر صمتك وتطل علينا بتعابير جهمة قاسية، تنضح باليأس والمقت، مازلت كما رأيتك أول مرة، ذلك الرجل الطويل الذي يقطع دروب المدينة صامتا، وعيناه شاخصتان في الغيوم، حتى تصورت صمتك بلادة مزمنة.
- أتركني، إن الجريح لا يهدأ حتى تشفى جراحه، في فمي صرخة أميرة، لا أطيق، أنني أحترق، كيف يصفعني؟! ذاك المسخ الذي يذكرني بكلب خالتي العجوز عندما أصابه الجرب، وانتهي برصاصة.

- لا تتعذب، إن الصفعة لا تتسرب إلى الأعماق، إنهم لا يملكون شيئا غير أن يصفعونا بعد أن فقدوا كل وسيلة دفاع حتى الكلمات البذيئة، ليذفوها على أسماعنا، لقد أفرغوا قاموسهم وانتهوا.
- لن تموت هذه الصفعة على خدي، لن أمسحها وأرسم ابتسامة مدحورة على شفتي، أبداً، إنها جرح ينزف، أصابعي أفاع صحراوية.
- لن يصفعوا إلا وجوههم، الحجرة الصلدة المتدلية سينقطع حبلها، الرخامة البابلية تكسر الرياح، الليل أغنية للرحيل، الأرض مازالت تدور.
- إن كرامتي تؤرقني، لقد كان المسيح مسكينا عندما قال قولته.
- ابتسم دعني أر وجهك الصديق يبتسم من جديد.

النار تضرم، الأيام الضبابية ستكتسحها الشمس، الأنشودة ستعلو، الفقاعات ستصبح نكتة على الأفواه.

- الأغبياء، يجب أن نبصق في وجوههم.
- "يا صاحبي القديم! يا ضباعي! حيث كنت أحب التسكع على شواطئ الفرات الحزين. وأتامل وجوه نساء مدينتي، حبذا لو تنزلق عيناي على زهرة! لا مستنقع!
- انهض، لا تكن كسولا، اليوم واجبك في إعداد الطعام، لقد سمنت، إن عنقك متكتلة باللحم ولك هيئة القصابين. أنت تطبق كسر ظهورهم لكن، انهض، نحن هنا نتقاسم كل شيء.
- حتى صفعاتي؟!

- إنها تحز فينا، لكننا لا نفضح غلياننا الخبيء.

"القضبان شموع، سأعود يوما وفي عيني شمس، من هنا دعيني أقتنص يدك الصغيرة، دعي الحمامة المذعورة تحتمي".

الليل أنشودة منسية، النهار تراتيل سرمدية.

- لقد غلبتك "الدوشيش" ميت.
- لا، أنت واهم.
- لقد علمتك اللعب وتريد هزيمتي! إنني منهم قديم.

صوت السجان آمرا:

- هيا انهضوا جميعكم، سنعدكم.[1]

---

[1]من مجموعة (صولة في ميدان قاحل).

حفرة حيث لا أقمار

في واحد من أيام الله قدم إلى مدينتنا رجل غريب ذو ملامح لا تخضع للوصف إلا أن جسده كان طويلا أكثر من المألوف، ولم يعرف أحد من أين جاء هذا الرجل ولأية غاية قادته خطواته إلى هنا، وكنا نلمحه في دروب المدينة ومقاهيها وهو يحدق في فراغ واسع كبير، وقد أثار قدومه فضول سكان مدينتنا وصار حكاية على السنتهم، وكان التساؤل الوحيد الذي يتردد بينهم.

- هل رأيتم الرجل الغريب؟ هل سمعتم صوته؟

حتى أن بعض عجائز مدينتنا كانوا يقطعون مسافات طويلة متكئين على عصيهم من أجل مشاهدة الرجل، لكننا بمرور الأيام ألفنا مظهره الغريب هذا وبتنا لا نشعر حتى بوجوده، بالرغم من كونه أول من يلفت أنظار القادمين إلى مدينتنا وعندما يسألوننا عن سره كنا نحار أن نعطي عنه جوابا، وكانوا يرددون محتجين:

- بينكم ولا تعرفونه؟

وكنا لا نملك غير الصمت جوابا.

وذات صباح كان طقس مدينتنا رائعا، وكنت أتامل مجنونا تسيل من ذراعه الدماء، وقد أطلت الوقوف قربه، إذ كنت لا أملك ما أفعله آنذاك وحوله كان بعض السكان مجتمعين يتلهون بما يصنعه، أما الحياة في المقاهي والأسواق فكانت اعتيادية جدا، وموت الرجل الذي بني أكبر فنادق المدينة قبل يومين لم يوقف ضوضاؤها وحياتها إلا أن اسمه سيرفع لتوضع مكانه أسماء الورثة.

وكان الأعرج الذي يبيع المبردات يغفو قرب عربته وعلى وجهه بلادته القديمة التي رافقته منذ أن كان تلميذا فاشلا في مدرستنا. أما الرجل الذي قدم المدينة فكان يقضم أظافره في ظل سيارة نقل كبيرة وفي الحقيقة كان كل واحد يمارس حياته بالية ورتابة فقد عمنا داء اللامبالاة الغريب، وعودتنا الصفعات التي نواجهها كل يوم أن نستقبل أعمالنا ببرود متشعبين لا نسسرب وراء حدث معين، وأتذكر أنني سمعت اثنين من رجال مديتنا يتحدثان في ما بينهما حيث قال الأول:

- أنت لم تتغير! ألم تحز فيك الأحداث؟

وكان أن رد عليه الثاني:

- البامياء ألذ من الفاصوليا.

ثم مضيا في طريهما.

لقد تغيرنا كثيرا كنا أشياء أخرى نحن غريبون عنها اليوم، في طفولي بكيت من أعماقي عندما رسب صديق لي في الامتحان ولم أتنازل طعامي

ذلك اليوم، ولكن قبل عام عندما سمعت بموت أبي ضحكت، ضحكت حتى تعبت ثم قصدت إحدى حانات المدينة وثملت بانشراح كما لم أثمل من قبل، ثم تشاجرت مع رجل سألني عن الوقت، وعدت أضحك بكل طاقتي، وقد قال حارس ليلي لصاحبه:

- كم أحد هذا الفتى الخلي؟

وكان يقصدني بكلماته...

ثم أمضيت ليلتي بين ذراعي لم أر وجهها...

وكانوا يبحثون عني آنذاك، فتشوا كل الأماكن التي كنت أرتادها ...

المقاهي الرديئة، بيوت الأصدقاء المواخير.. كانوا يبحثون لأنني أكبر أبناء أبي ووريثه الشرعي أمام الله والناس، وهذا شيء لم يخطر ببالي يوما! أن أكون وريثاً لمخلفات إنسان وقيما على عياله وأمواله.

وإزداد ضحكي، وبكى بعض النساء اللواتي جئن يندبن أبي، بكين علي، لأنهن تصورن الشيطان دخل رأسي:

- مسكين مازال صغيرا، لم ينعم بليلة عرسه ولم يهنأ بين ذراعي امراة! وعندما مددت يدي لاستلم الأرث أخبروني بأن المسألة ليست بهذه السهولة وأنها تخضع للقوانين، وبعد مداولات وصداع رأس واتصالات مع موظفين مختلفي المناصب، عدوا حصتي من الإرث فوجدتها لا تسد ثمن الطوابع التي خسرتها في المعاملات.

عفوا لقد نقلتكم إلي حديثا جانبيا لا داعي له الآن، وحدثتكم طويلا عن نفسي، أنا الذي أحاذي الجدار الآن ولا يعرف أحد عني سوى اسمي الذي يمثبته دفتر نفوس نفوس صغير، تعسا للفراغ!

أعود لحكايتنا الأولى.

لقد بقي المجنون في مكانه ودماؤه تزداد نزفا وكان يعبث فيها بعصا خيزرانية نحيفة كقامة تلك المرأة التي أحببتها يوما في خضم عطشي السرمدي، وكان يصرخ بنشوة وامتلاء:

- دم...دم...دم!

واقتربت منه أكثر، فهذه الغريزة اللعينة، حب الاستطلاع لم تفارقني منذ طفولتي، وهي الخصلة الوحيدة التي أبقتها لي الأيام ولم تأخذها مني ولأول مرة حدقت جيدا في وجهه المغطي بشعر كث فوجدته أعور وعينه السليمة صفراء لا تستقر، ثم انتفض صارخا حتى أن قطرة من دمائه استقرت فوق كتفي الأيمن وقد حاولت إزالتها بعد ذلك بكل وسيلة لكن أثرها باق حتى اليوم.

- دم حلو .... حلو..... دم لذيذ!

ثم أخذ يرقص رقصة بلا إيقاع ويردد مقاطع من أغنية مشهورة عندنا وقد عناد نساء مدينتنا ترددها في ليالي الأعراس، وظلت دماؤه تتساقط بغزارة ثم فجأة جاءنا صوت الرجل الغريب والقابع عند في سيارة النقل وهو يصرخ:

- قاتل! نذل كبير!

وهذه هي الكلمات الوحيدة التي سمعتها من فم هذا الرجل، واستمر بترديد صراخه، وأوشك الضجر أن يخنقني من هذا العويل الذئيي، ولأول مرة فكرت في ضربه، ولكن من أكون أمام هذا الطود الأسطوري؟!

وخاطبت رجلا مسنا كان يقف بجانبي:

- لكنه يقتل نفسه وهي ملكة!

والتفت لصوتي بائع متجول وقال:

- لقد بتنا لا نملك حتى أنفسنا!

فانفجر فمي عجباً من هذه المدينة التي لايعرف أهلها منطقا غير الفلسفة! وبقي المجنون يرقص والغريب يصرخ، وانقسم المتجمعون ما بين ضاحك ومتألم، وهكذا كانوا يصارعون الوقت، أما أنا فاطنني الوحيد الذي يجهل موقفه من تلك اللعبة آنذاك.

وخطأ الغريب صوب المجنون مزمجرا راعدا ثم أمسك به واوقع به ضربا، وكنا تراقبهما بلا مبالاتنا الغريبة وكأننا نتابع مشهداً من أحد الأفلام الرخيصة التي تعرض أحيانا في سينمات مدينتنا.

ولم يطل بنا الوقت عندما وجدنا عيوننا تستقر أخيرا على المجنون وهو ملقى جثة هامدة تغرق في دمها.

فضحك البعض وتفوه آخرون بكلمات لا أتذكرها الآن، وبعد لحظات مضى كل واحد منا في طريقه.[2]

[2]من مجموعة (السيف والسفينة).

أربع رصاصات متململة

1. نصير الناصر

كان أبوه ومن قبله جده شغوفين ببريق النصر في أي ميدان يطرقائه، وقد عشق النصر مثلهما، ومن أحلامه اللاحقة ألا يبعد أسماء أبنائه وأحفاده عن هذه الكلمة وفي ذاكرته هيأ البعض منها.... منصور... مستنصر....ناصرة ..... إلخ.

أما اليوم فمن حسن حظ نصير الناصر أنه ليس متزوجا وليست له النية في ذلك، وقد فشلت المحاولة الأولى له في ذلك وحمد الله على العاقبة فقد تعقدت الدينا وجاء الغلاء على أسعار الفنادق وشاي المقاهي فكيف الزواج إذن؟!

وضع في فمه قطعة لحم، ثم أخذ يحرك فكيه بلذة، بعد ذلك بدأ يمصمص شفتيه متهيئاً للقمة أخرى لاعناً أيام الجوع الأولى، يوم كان يطوف الشوارع بدشداشته المتأكله الأذيال وينعليه اللذين تقطع جلدهما من كثرة المشي والترحال.....اذهبي إلى الجحيم، وكاد يختنق عندما طالعته عينان كابيتان لصبي يحمل بيده بطائق اليانصيب.

- عمي الجائزة الأولى... قصر وسيارة!!

وضحك نصير الناصر، أواه أيتها الهموم القديمة! أيتها الهموم!

أيتها الهموم....أيتها واختض كيانه أمام بؤس هاتيك العينين، إنهما مثل عينيه أيام الجوع الأولى، يوم كان طعما للمخبرين يطاردونه في كل مكان ويشتبهون في كل من يحييه أو يقف معه في الطريق، وكاد أن يتقيا قطعة اللحم، وعبثاً حاول التملص من هذا المشهد ولكنه لم يستطع، وتجمدت يده عن حمل قطعة أخرى، فاشتري بطاقة وصرف الصبي.

2ـ القضية:

في أزقة المدينة (ن) ودروبها كان وجه نصير الناصر متوثباً باحثا كالآت التنقيب، وكان يقرأ الملامح وينتهكها بنظراته عله يجد وجه ذلك الحارس الذي أمسك به في منتصف ليلة باردة ووضع فوهة بندقيته في صدره.

- لا تتحرك!

كان الظلام دامساً، وليس في الشارع الساكن غير ضوء المصباح المتماوت وهو يضرب على ذلك الوجه الأسمر القاحل ذي الشاربين الكثين ولم يتحرك وفوهة البندقية في صدره وترك حزمة المنشورات تسقط من يده على الأرض، فالتقطها الحارس ووضعها في جيبه.

- أمامي
- إلى أين؟
- إلى المركز.
- دعني أذهب!

- لا أستطيع، لدينا أوامر بالقاء القبض على كل من يكتب على الجدران، أو يوزع المنشورات.

- لكن

ولكزه بفوهة البندقية وهو يخور:

- أمامي.

ثلاث سنوات في غرفة ضيقة، لا الشمس ولا الأحلام ولا الزنابق يا....وهكذا دفع نصير الناصر الثمن بانسحاق.

- إنها عقوبة بسيطة، لم يعذبوك أو يضربوك.

هكذا قال أحد السجناء، وأعقبه سجين اَخر:

- وضعوني عارياً في كيس مع ثلاث قطط جائعة عشرين ساعة!! ثم رفع ثوبه وتابع:

- انظر، لقد أكلت إحداها ثديي! ولم أشف من الجروح والخدوش إلا بعد عامين!!

وقال ثالث:

- تقبل الحكم...

لابد وأن أجدك يوما أيها الحارس اللعين، وها هو مسدسي في جيبي، فيه أربع رصاصات متململة تنتظر صدرك لتهدأ فيه، سوف تثقبه ثقباً وأسبح بدمك بعد ذلك وهو يتدفق كماء (الدش)، ثم يضرب بيده على

ركبتيه ويحفزه صوت الصفعة، فيرفع رأسه إلى الأعلى ويعض شفته كان الجوع يدمره، وهوه يسحث عن ذلك الوجه بين وجوه حراس الليل.. جميعهم هزيلون مسنون، يسيرون كالمرضى، ولن تخيف أحداً وجوهم المنقبضة، ولا أصوات صفاراتهم التي تلطخ صمت الليل بوحل ضجيجها، ولكنه ليس بينهم، فهو طويل ممتد كالقدر، خطواته عريضة، ويبدو كجندي مسرح من الخدمة حديثاً، لقد أشعل أعواد الثقاب في وجوه عديدة، ولكن أين وجهك يا من لا أعرف له اسماً؟... ولكني سالتقطك يوما ولو جفت الأضواء وتلاشت ولم يبق منها بصيص.

يستند إلى عمود الكهرباء ويدخن، تصافحه بعض الأيدي وتبتسم له بعض الوجوه مهنئة بإطلاق سراحه.

- لا أراك الله مكروهاً!
- السجن للرجال!
- كنا نتابع أخبارك!
- حرمنا من قراءة المنشورات منذ غيابك!
- لعن الله ذلك الحارس!
- هل تعرفه؟
- لا

ويواصل التدخين.

ليست السنين الثلاث دقائق سريعة، إنها عمر طويل من الجوع والجفاف والصمت والإحتقان، ولكن الأمل هو أن أراك يوماً، لقد ذابت قضية الحزب في رأسي، ليس جبناً ولا خذلانا بل حقداً عليك، ولم يبق سوى نصير الناصر الحاقد الذي ينتظر لحظات التنفيذ.

3ـ أوجه أخرى:

لن أنسى وجهك يوماً، أتظن أنك أديت واجبك على أتم صورة يوم اعتقلتني في تلك الليلة المشؤومة؟! كيف أنسى أولئك الذين حاكموني في تلك الغرفة الرطبة؟! الهدام..الزنديق.. وتلك الوجوه الخضراء التي صفعتني بالحكم الذي دار من رأسي، وعندما خرجت وجدت الظلام قد ازداد كثافة وأغرق العديدين، وأن تلك المنشورات التي كانت تلصق على الجدران وتوزع تحت جنح الليل لم تأت أكلها، فمن يقرأ؟ ومن يعمل؟ وما جدوى الاحتجاجات الصامته؟ وظل (المليك) متربعاً على كرسيه الوثير.

- ليست القضية قضية فردية.
- أعرف.
- عليك أن تتبرأ من حقدك الخاص إذن؟
- ليتني!
- حاول.
- سأحاول ذلك متى انتهيت منه!

- ليس الحل بتدمير الأداة بل بتدمير حاملها.
- أنتم لا تجيدون إلا الكلام فقط.

ثم يطرق بعد أن يتشبع بهذه الكلمات التي نطق بها رجل مسن أنفق أيامه في المخابئ السرية وبين القضبان، ولكن هذه المتاعب لم تزده إلا تفاؤلا.

هتف مع نفسه:

- ليتني أستطيع! ليتنى!

لابد وأنه هادئ الآن، وربما يشرب شاي العصر بلذة وحوله أولاده يحدثهم عن عدو (المليك) الذي قبض عليه قبل ثلاثة أعوام، وربما اعتبر ذلك مفخرة كبيرة لهم يحملونها من بعده.. ورصاصاتى؟ ويتحسس المسدس في جيبه، فيطمئن، إنه مهيأ الآن، ولكن أين أجدك؟. لماذا لا أعرف لك إسماً؟ ويضرب صدغه بيده، ويمد رأسه من النافذة في انتظار نسمه هواء.

- سيهبط وجهك المتحدي تحت رصاصاتي، وينهار كالمنازل القديمة!!

4ـ **الحسم**:

خلع نصير الناصر قميصه، وتأمل عضلاته التي أصبحت حادة كالأسنان، وأخذ يؤدي بعض التمرينات الرياضية، ورفع ذراعيه إلى أعلى ثم أخذ في القفز على الأرض قفزات رتيبة بطيئة استجابت لها عضلاته، وأخذت في الارتخاء والاهتزاز ثم انفجر ضاحكاً، وأخذ يقفز ويضحك حتى تعب وانطرح على ظهره.

كانت الأشياء من حوله باهتة زائدة، وليس بينها شيء حقيقي غير هذا اللهاث الذي يفح به صدره ويتدلى من لسانه، مسح جبينه، ثم نهض وتوجه صوب سترته المعلقة واستخرج منها المسدس، وأخذ يقلبه بين يديه، رفعه إلى فمه وقبله، كان حديده بارداً مقرفاً فبصق على الأرض، ثم تكورت أصابعه حوله، واستقرت سبابته على الزناد، دار بعينيه القلقتين في أرجاء الغرفة وتوقفنا عند خنفساء تعدو متثاقلة، وود لو يسألها:

- إلى أين؟

ولكنه عض على شفتيه وضغط على الزناد، فانطلقت الرصاصات الأربع ملعلعة في أرجاء البيت.[3]

[3]من مجموعة (الظل في الرأس).

الأرض تدور

تنبح الحناجر، وكانت الأحذية تفرقع على الأسفلت كآلاف الترجيلات، وظلت الأيدي مشهورة كرماح قبيلة استوائية، أشجار الشارع تنام هادئة، وعيون الجموع جامحة خرافية.

كان ماجد منحنياً والجموع تنصدم به، امتدت أصابعه العشر والتهمت رباط الحذاء وراحت تشده، وعندما انتهي من ذلك ضرب حذاءه بالأرض ثلاث مرات ثم انطلق مع الزاحفين، خرافة عتيقة تنقص لحظات الاندماج هذه ويذوب هيكله في الحمى، وإلحاح غريب يدفعه لأن يمضي، وترتجف أعماقه القاحلة دون أن يحس بضيعة الجهد التي تنتاب دقاته، وتظل عصارة رأسه وصدغيه في هذه القورة التي تهد كالشلالات، ويمط قامته ويسمع طقطقة أصابع قداميه وهي تحمل جسده، تلسعه أشعة الشمس فيصنع بكفه مظلة صغيرة ويطل على المقدمة فيعجبه امتدادها، لم ينكفئ مطلاً على المؤخرة فيجد جسده غائصا في هذا البركان.

قال له الرجل نحيف وهو يستحق قدمه بحذائه الكبير:

- العفو.

وعندما التقى وجههما في تلك النظرة الحاسمة كانت الأصوات لاتسمح لأن يرد بشيء، فهز رأسه ثم ابتسم فرفع الرجل وجهه ووضعه بين الوجوه، أمامه علبة فارغة ركلها ماجد وراحت تتدحرج أمامه، تخطت الرصيف ثم اصطدمت بجذع شجرة واستقرت في حوض الماء المحيط بها.

تهدر الأصوات وتلتصق الأكتاف، وأحس بأن النهار طويل وصاخب، وأن الليل بعد، وهذا الإصرار يلطم الأشياء والجدران والرؤوس الفارغة، رفع يده من جديد وأخذ يهتف مع الهاتفين، إنه لا يستطيع أن يميز صوتاً واضحاً ولكنه لم يستطع الإفصاح بكلمة.

هرولت الأراجل، وفعل مثلها، ورغم الإصرار والخطوات كان هناك شيء غامض يلون الوجوه بطعم الانتظار والترقب، وإحساس لايمكن تحديده أو التحدث عنه، ولم تكن لماجد حكمة خاصة يفرضها على الصارخين، إنه نهر، أكلت أمواجه الرمال ولكنه لم يعرف دفء الرمو والاستقرار، يد ترتفع ومعها بسمة على وجه أكل شاربان كتان ثلثه الأسفل، ترتفع يده معلية على التحية.

- ماجد.
- فاضل.
- يسأله الماضي وجموحه يا ماجد.

وأخذت صاحب اليد الجموع وأضاعته، وظل وجه ماجد يتعقبه، ثم طفا الوجه ثانية.

- فاضل.

ومن المؤكد أن فاضلاً لم يسمع ما قام به، ولكنه ظل يبتسم، ثم وضع يده على هيئة كمأة فوق أنفه محاولاً التقاط ذبابات صوت ماجد الذي أبتلعه الصراخ.

- ماجد.
- فاضل.
- ماجد.

وتناوبت الأصوات مرددة عواءها العاري المقنول، التقط ماجد منديله من جيبه وأخذ يتمخط فيه بصوت عال، وأحس أن أنفه قد تخدر حتى أصبح فلينة زائدة الصقت بوجهه لصقاً، وعام في الموج، تدلى لسانه، أخذ يلهث، أواه يا ماجد! أيها الموبوء! الطواويس الزائفة! رئتي التي ملأوا بها مناقيرهم، ثقبوها، ريشهم المنقوش، قاماتهم المكرشة المكورة المتدحرجة المليئة بالزبل والقذاره، يا ماجد! أواه! أية بذرة أغرسها؟ هيا علقوني على الحائط واكتبوا على جبيني هتافاً ساحناً يجعل لزحفكم الأعمى معنى.

تعب ماجدة فجلس على جذع شجرة مقطوع، كان رباط حذائه قد أفلت من جديد، أخذ يمسح مقدمه الحذاء بأطراف أصابعه، وترك

الجموع تمر، ثم انتبه إلى رباط حذائه وأخذ يشده، ثم بدأ بفرك أذيال بنطاله المتربة، بعد ذلك مدد ساقيه وأخذ يدخن.

كانت هناك أنياب كثيرة وأفاع أيضا، وصراخ رجال يعذبون بفظاعة، وضع يديه على أذنيه وأخذ يفح كالأفعى، ثم رفع يديه وأخذ يمشط شعره بأناملة، حدثهم ولم يردوا عليه. ناداهم، رفع صوته عالياً، عويل، ماء، خار، انطفأ، كانوا مدمرين تماماً وقد نسف كل صفائهم، وحاول أن يلقي بنكتة عن الديك الذي عرف الكثير من الدجاجات، وعجز عن أن يحيل سنفونية الأنين إلى ضوضاء حانة، خلع حذاءه، وخنق رؤوس أصابعه التي امتدت كرؤوس العصافير فطقطقت بين يديه وهو يهصرها، أعاد قدميه للحذاء، وكان هناك رجل يسعل بصوت مفجوع وحوله كانت الجريمة في قناع باسم، رقص الكثيرون، أخذوا يدورون ويرفعون رماحهم إلى الأعلى ثم يغرسونها في الأرض ويقتلعونها من جديد ويواصلون الرقص، توجه الرماح صوب الأجساد المعلقة فنرميها، تخترقها صرخة آه كبيرة تسقط أثرها الجدران، وحاول أن يستغيث ولكنهم كموا وقتلوه.

يشرب قدح ماء بارد، ويحرك مؤشر الراديو باحثا عن محطة تقديم موسيقي هادئة تقتل رعبه في مثل هذه الساعة المتأخرة من يوم ذبلت لحظاته وليس هناك أمل في أن تورق مرة أخرى.[54]

---

[4]من مجموعة (وجوه من رحلة التعب).

الكبش

نظر حميد الطاهر إلى السماء وقد تجمعت فيها الغيوم الممطرة، ورفع عقاله وبشماغه عن رأسه الحليق. وبدأ يمسده براحة يده بالتذاذ بينما تألقت عيناه المتعبتان بفرح خفي.

ها هو موسم الخصب يجيء، وعندما تهطل بواكير المطر يبدأ الرعاة زحفهم نحو الجزيرة في الخلاء الممتد بين نجد والعراق، حيث تخضر الأرض القاحلة وترصعها برك المياه الصافية.

وظل يمسد رأسه ويتثاءب بين فترة وأخرى، وراقب سربا من الطيور المهاجرة وهي تحلق في السماء، وامتدت يده لتلتقط بندقيته الراقدة بجانبه، ولكنه عدل عن ذلك بعد أن قاس المسافة بفطنة صياد عريق فوجد أن الطيور بعيدة عن متناول رصاص بندقيته.

استل كيس التبغ من عبه، وبدأ يلف سيكارة له، وهو يتثاءب أو يتجشأ بين فترة وأخرى لقطع لحظات القيلولة التي ينعم بها في مثل هذا الوقت.

كان لحميد الطاهر كرش كبير، يلمه مع صايته بحزام من الصوف نسجه بيديه ورصعه بالخرز الملون حتى بدا جميلاً وأنيقاً، اما الحزام

الجلدي العريض ذو الشاحب التي يحفظ فيها الرصاص فقد نزعه وتركه بجانبه لينعم كرشه بالاسترخاء بعد أن حشاه منذ فترة قريبة باللحم واللبن وخبز الشعير.

لم يترك حميد الطاهر بندقيته لحظة، فالذئاب غالبا ما تهاجم قطعان الغنم المنتشرة يدفعها جوعها السحيق لأن تفعل ذلك غير آبهة برصاص الرعاء الذي ينتظرها. كانت تهاجم القطعان بمجموعات وعندما تخرج خائبة تربض على مبعدة وتظل تردد عواءها القاحل.

ورفع حميد الطاهر رأسه مجيبا على تحية الصوت الذي يعرفه. كان صوت فرحان الحسن جاره. وبعد أن جلس على الأرض بجانبه، همس له يود:

- الله بالخير.
- الله بالخير.

وواصل لف سيكارته، وعندما انتهى منها قدميها إلى فرحان فاعترض قائلاً بدعابة:

- لا، أعطني الكيس. أنا ألف أحسن منك.

فهش حميد في وجهه وهو يسلمه الكيس ويقول:

- أنتم الشباب لا ترضون بأي شيء نفعله.

فردد فرحان:

- وجودكم بركة أيها العم. صدقني والله العظيم.

وجمع حميد أواني الطعام الفارغة التي مازالت أمامه وأعادها إلى الصرة وأحكم شدها ثم وضعها جانبا. بينما نطق فرحان الحسن وهو يواصل لف سيكارته:

- لم يبق في الأرض شيء. انظر، الأغنام تحفر بأسنانها حتى تحصل على عروق العشب.

وأجابه حميد:

- كنت أتامل السماء قبل مجيئك. أظن أنه اَن لنا أن نرحل.

ثم أردف:

- سأمر بوالدك هذ الليلة وأخذ رأيه في الموضوع.

وعلق فرحان:

- ربما نكون مبكرين بعض الشيء، أخاف أن نذهب ونجد الأض مازالت صحراء.

وقال حميد وهو يشير بسبابته إلى السماء:

- انظر، الغيوم اتيه من الشمال. ولابد أن الصحراء عامرة بالعشب والماء الآن.

- أنت أعلم مني بهذه الأمور.

وامتدت يد حميد إلى كيس التبغ الذي فرغ منه فرحان وبدأ يلف له سيكارة جديدة، بينما سرح بصره ناظراً إلى شياهه وهي تدس رؤوسها في بقايا العشب.

وقال وعيناه مازالتا في سهو مهما:

- إن كان من رأي والدك أن نبقى بضعة أيام أخرى فأري أن تنتقل إلى محاذاة الهور. الماء ينسحب في عدة أماكن مخلفا البردي والقصب وبعض العشب.

وقاطعه فرحان بقوله:

- ولكنه سيظل رطبا ولن تقربه الأغنام.

ورفع حميد السيكارة إلى فمه بعد أن انتهي من لفها. أشعلها ثم قال:

- علي أية حال. سنعرف رأي والدك قبل كل شيء.

ثم أضاف أمرا:

- خذ الكيس وهيئ لك سيكارة جديدة.

وتناول فرحان الكيس منه. ومد يده في جوفه ملتقطا التبغ. ثم استل ورقة من دفتر "البافرا" وبدأ باللف. وقال:

- عندما كنت جنديا اشتريت من كركوك علبة من الصفيح. صفراء وجميلة. وتلف السيكائر أيضا، ولكن أية سيكائر؟ إنها جميلة كأنها سيكائر "لوكس".

واستمر في القول وهو يواصل اللف:

- ولكني أضعتها، ربما وأنا أقفز ترعة سقطت من جيبي في الماء.

ثم واصلا التدخين والثرثرة، بينما استحوذ الهدوء التام على المكان، وانطرحت بعض النعاج على الأرض مجترة ما اختزنته في أجوافها.

ومن بعيد كانت تلوح مجموعة من النساء عائدات من الحقول حاملات حزم الحطب على رؤوسهن. وقد مشين بصف طويل، وهن يحتزمن بعباءاتهن ويقطعن الطريق بخطوات عجلى ومتناغمة صوب مدينة "الدواية" التي تلوح أبنيتها أمامهن. ومن خلفهن وعلى امتداد الأفق ينام الهور أزرق تحت نور الشمس.

ونطق حميد:

- قرأ لي ملاّ سالم طالعي. وقال إنك مقبل على خير كثير.

وردد فرحان من قلبه:

- الله يسمع من فمه.

وقال حميد مغيراً لهجته:

- تمنيت لو كان ابني فاضل معي، ولكن العسكرية أخذته مني. ثم أضاف بعد أن نفث الدخان من صدره:
- ولهذا أنا مضطر الآن لاستئجار راعيين نشيطين على الأقل. الأغنام كثيرة والحمد لله، وأنا كبرت ولم تعد لي قوتي الأولى.

وبعد أن انتهي من كلامه التقط شماعته وعقاله ووضعهما على رأسه الحاسر. ثم رمى عقب السيكارة بعيداً. وانطرح على جانبه مستنداً على كوعه. المغروس في التراب، ومد بصره باتجاه أغنامه وقد التمعت أصوافها أمام اشعة الشمس. تأمله فرحان وقال:

- أستطيع أن أجيء لك براعيين أو ثلاثة إن أردت.
- من أين؟
- زاير حسون باع غنمه وقرر أن يسكن المدينة مع ابنه المعلم. وسيستغني عن رعاته حتما.

وهتف حميد:

- فرصة طيبة والله. أريد راعيين لهذا الموسم فقط حتى يسرح فاضل من العسكرية، سأعطي كل واحد خمسة رؤوس غنم وصفيحة سمن وثوبين.

وتساءل فرحان:

- وأنا؟
- لك خروف مقابل وساطتك.

وقهقة فرحان وهو يقول:

- أبا فاضل، ليس بيني وبينك فرق. غدا سيكونان عندك ولكن مقابل عشاء فاخر فقط.

وردد حميد:

- ما أسهل طلبك.

ثم أضاف:

- وفي زواجك سأصنع ما أصنع.
- أريده مثل زواج فاضل؟
- وأحسن.

ثم قال مضيفا بتأوه:

- ولكنه لم يبق مع امرأته شهراً. وذهب.

وعاد ليزفر بحرقه. إنه ابنه الوحيد مقابل ثلاث فتيات يصغرنه وقد تزوجهن كلهن. وترك رحيله فراغاً كبيراً في حياة حميد. وقد مر على تجنيده أكثر من ستة شهور وليس بينهما واسطة غير الرسائل التي تصل منه بواسطة عطار في "الشطرة". وعندما يريد الرد عليه كان يركب

حصانه ويقطع مسافة طويلة حتى يصل إلى ضفاف الهور ليجد عريفا سابقا في الجيش يكتب له رسالة مقابل دجاجة سمينة أو كمية من البيض والزبدة. إذ إن حميدا يكره التعامل بالنقود ولا يحتفظ منها إلا بالقليل أما أثمان الجلود والسمن فكان يشتري بها أغناما جديدة.

ويوم زواج فاضل جاء بالغجر الذين كانوا يحطون على مقربة من سدة "البدعة"، ونحر عدداً كبيراً من خرافه. وكانت ليلة عامرة بذكرها حميد بفخر. ولم تخفت أصوات الرصاص وهي تلعلع في الفضاء فرحا لثلاثة أيام لاحقة. وقد أفرغ كل فرد من أفراد القبيلة عدة أمشاط من الرصاص إكراما لحميد وابنه. وأصبحت فرحة حميد أكبر عندما خرج فاضل بعد دقائق من دخوله على زوجته وبيده قطعة قماش بيضاء رصعت بالدم حيث احتضنه بفرح وهو يهتف:

- أنت رجل ولم تكسف أباك بين القوم.

التفت إليه فرحان وسأله:

- أين وصلت ياعم؟

وانتبه حميد إلى صوته وردد:

- كنت أجوب في هذه الدنيا الواسعة.
- وتذكرت أبنك؟
- وهل لي غيره؟

ثم قال فرحان مغيراً لهجة الحديث وهو يتأمل الفضاء الرحب الممتد أمامه:

- أتدري ياعم؟ إنني أتوق للذهاب إلى الصحراء.

ثم صفق بيده وهو يردف:

- البراري المكسوة بالخضرة. وبرك المياه الصافية وهي تلتمع تحت نور الشمس. ورائحة الزعتر والعرار وهي تعطر الجو. أوه. ما أروع أن أركب جوادي واصطاد الغزلان والأرانب وهي تحاول الاقتراب من الجدران!

واكتسى وجهه الفتي بالفرح العفوي وهو يواصل البوح:

- ما أجمل الحياة في الصحراء المنسية وهي تصحو على الخضرة والماء!

وانتبه حميد إلى كبشه الكبير وهو يبتعد عن القطيع. فصرخ من مكانه:

- أين؟ أين؟

ونطق فرحان وهو يراقب الكبش:

- لقد شاب كبشك هذا ومازال فحلا؟!

وردد حميد:

- إنه فحل مثل صاحبه.

ثم انطلق ضاحكاً وهو يلتقط خرزانته ويهب مهرولاً باتجاه الكبش. وبدأ يهمهم:

- ملعون.. أين؟

ورفع الكبش رأسه بأن قرناه وملتويين وهو يتوقف ويتأمل صاحبه الذي جاء مهرولاً باتجاهه. وعندما اقترب منه ضربه بالخرزانة على إليته وهو يصيح:

- هيا عد .

فهب الكبش راكضا يصحبه رنين الجرس المعلق في عنقه. فجفلت بقية الشياه وأخذت تركض وراءه. فصرخ حميد مستنجداً:

- فرحان... ساعدني يا ابن أخي.

وظل الكبش يركض قافزاً الترع الصغيرة وحميد في أثره يسوطه بالخزرانة بين فترة وأخرى والسباب ينسفح من فمه. وكان يلهث ويسعل وقد سقط العقال عن رأسه وتعلق في عنقه. جمع أطراف صايته ثم دسها في حزامة لتسهل حركته ثم عادو الركض. أما فرحان فقد سبقه وهو يعدو بساقيه الفنيتين حتى أصبح أمام الكبش واعترض طريقه وهو يفتح ذراعيه صائحاً:

- ها..ها..ها..

مطلقا الصوت من أعماق حنجرته بسرعة وقوة جعلنا الكبش يتوقف في مكانه.

واستمر في القول:

- أيها الكبش العجوز، من أين لك هذه القوة؟

وردد هذه الجملة عدة مرات فكانت تبدو وكأنها تجد صداها لدى الكبش الهائج. ويتوقفه توقف القطيع المذعور عن الركض. وعندما لحق به حميد قال:

- الذبح فيك حلال والله.

وظل يطلق الشتائم من فمه اللاهث. بينما وقف الكبش وفرحان مستردين أنفاسهما. وبعد فترة التفت حميد الي فرحان وقال:

- لقد حل ذبحه هذا الكبش العجوز.

ثم رفع عقاله من عنقه وأعاده إلى رأسه. وبعد أن حسن من وضعه نظر باتجاه الكبش وقال:

- هيا عد أيها الكبش العجوز.

فأطرق الكبش ثم لوى عنقه واستدار عائداً. بينما أخذ حميد يردد:

- سنرحل بعد أيام ولن تستطيع الوصول، ستفطس في الدرب. وهذه المكابرة لن تفيدك. سأشوي لحمك. وأتلذذ به، أفهمت؟

واقترب منه فرحان وهو يتساءل:

- أحقا ما تقول؟

وهز حميد رأسه بالإيجاب. وقال:

- نعم. لقد قرأ هذا الكبش العجوز أفكاري. وكأنه يريد أن يؤكد لي فتوته وقوته. ولكن هيهات.

ثم أردف:

- جنتي بالراعيين يا فرحان كما وعدت. وغدا سأطعمك من لحم هذا المارق.

وأشار بيده إلى الكبش الكبير وهو يخب أمامه بخيلاء وإليه تهتز ذات اليمن وذات الشمال.[6]

---

[6] مجموعة من (ذاكرة المدينة).

المصعد

"الغربة المجهولة في عينيه الزائفتين"

تحار هذه المدرجات الملساء من أن تلتقط الأقدام التي ترف فوقها، الأقدام تلوذ بالمصعد المتدلي كالذبيحة، مساقط الضوء الناصعة البياض، شعر(ب) المترسل كالخيوط، تنورتها البيضاء،

ثلاثة أجساد لها باقات منشاة وأصابع خشنة تجيد الصفع والكتابة، المصعد يعلو، أي طابق؟ الأجساد ترتصف كالجزمة الضالة.

في عيني (ب) طائر حبيس لم يجد الآفاق رحية طائر أخرس، أبكم، الآفاق ليست واسعة فلماذا لا تحجب أغانيك؟

كانت خطواته تقرع جدران ذاكرتي، تلاحقني، تجوب في أقبيتي الملغومة، أنه (ك) القديم، في المطاعم والباصات والشوارع والمقاهي المتزوية، في الحلم واليقظة، (ك) المتناسخ عن ملايين الأشباح الأسيرة التي أغلقت ميادين اللعب أمام حفيف أقدامها.

الأجساد الثلاثة تزداد التصاقا، يسعل أحدهما، يستدير الآخر للمرآة المعلقة في جوف المصعد، يحسن من وضع ربطة عنقه:

- تبدو جميلا ووسعيدا اليوم!

يهز يده ضاحكا:

- ابحث عن شيء جديد، هذا قول قديم:
- أتمنى أن أكون مصورا إذن لا لتقطت صورا لا ناقتك هذه التي قد لا تتكرر.

يزفر الجسد الثالث، لم يسحب نفسا عميقا عن أنفه الضخم، عن الصعوبة أن يعزيني بكلمات ناعمة تلتصق بي كالفتور (ليس هناك من يستحق أن تتألم من أجله)، أنت مازلت تتوسد حزنك، كنت محاطا بهم، وكانوا يتزعون صوتك، يسحقونه، يحيلونه إلى عياء كلبي، وكنت تستسلم للمؤادية، وها هو (ك) أمامك، الغربة المجهولة في عينيه الزائفتين، عيناك تدوران بين وجهه البعيد وبين الجدار العاري المعرض للعطر والغناء، كنت نأكل وكان يأكل أيضا نفس الصف الذي طلبته، فكاه يدوران ليسحقا طعامك، عيناه في الحذمة لا الفئة له مع الأشياء ولا يكترث بها، بانتشاء تام بأنفسهم طعامه، ألقيت بالملعقة. ووضعت يدك على خدك وأخذت تراقبه، في أعماقك الرغبة ملجمة بقسوة، (ب) لن تورق لأنها مرعبة ضالة، ماذا يحدث لو التقت العيون الآن؟ أي أحساس مستقيا، أعصابك المشدودة كالأوتار؟

- اللعب غير مجد.
- عندي مزمار.
- أنني أحبها، حدث ذلك منذ أن رأيتها أول مرة، كانت تملك طعمها الخاص لذلك أثارت فضولي، كانت لحظات بذيعة

سجلتها في دفتر يومياتي عندما حملت جسدي صوبها باحثا عن المطر في غيوم شعرها الداكن، ولكنها مثلي لاتدري ماذا تريد فاضطررت إلى..

- كان الصوت صافيا.
- من البهولة أن...
- سحقت الضفدعة بحذائي فتدلى لسانها الذي كان يورم رأسي.
- حلقت شعر رأسي مرتين هذا الشهر.
- ألم تقرأ يوميات أندرية جيد؟
- عرفت شيئا جديدا عن انتحار.
- ثم وضعت يدي في جيبي، وأخذت أراقب مسلسلاً غرامياً يقدمه التليفزيون.
- هل أحببتها حقاً؟ سؤال بارد أليس كذلك؟ القلب لم يعد بقوي على العطاء بعد، لا تسألني لماذا؟ لأن شعرها الداكن يستحق ألف أغنية حب، إنك لم ترها، إن رأيتها ستعرفها حتما، ولكنها جبانة.
- أهملها أذن.
- وهذا ما فعلته، الأعماق الفارغة لن نعطي غير العتمة والنضوب.
- الروماتيزيوم سحق عظامه.
- لقد تمزقت طبلة أذني.

- وبعد ساعتين نسيت كل شيء.

أنا ألتف حول نفسي، (ب) هناك تلتف أيضا حول نفسها، وفي الليل رأيته، (ك) المعنم، كان يرتصف في إحدى محطات الباصات، وكان نحلا مقروراً، اندسست في الظلام، وعندما جاء الباص هرولت وركبته، احتجت بمعطفي، رفعت حتى غطت أذني، ولم تتوقف طقطقة أسناني، اندفع أحد السسكارى مغنيا، وعندما التفت وجدته يجلس ورائي (ك) المتدثر في الركود، كدت أنط وأقفز من الباص الذي يحوي في الشارع العريض، وعند أول موقف هبطت، أخذت أركض، ولذت في المنحطفات والزوايا، أقدامي تفرع صمت الليل وتفتح أبوابه، صوت صفارة الحارس، قف، وقفت، لماذا تركض؟ لست لصا، إنني مغرور، أريد أن أتدفأ، هيا اقرأ اسمي وعنواني، قرأت تعاليم السيد المسيح، وإنجيل بوذا، ومزامير داود، وديوان المتنبي، ومذاكرت بوريس بالستورياك، وخواطر (ب) وشعر مايكونيسكي، وتصريحات الجنرال ديفول.

- لماذا لاتبادر إلى انطلاقة أكبر؟
- أتسالني هذا أنت؟
- لا تنسحب هكذا، ولا تلذ بالفرار لأنك عارق ورأسك يملك الاتزان، وليس لك جنونك الخاص.

أخذ أحد الأجساد يصفر.

- لقد أنقذونا بهذا المصعد.

- ترى كم من الوقت نحتاج لنبلغ مأرينا؟
- إنه العلم يا صديقي، العلم.

الأجساد الثلاثة حلت تلاصقها، الحقيبة الجلدية السوداء ملأى بالكتب والنقاويم، انهيار الفضائل وتفسخ الأخلاق آخر الزمان ومصير البشرية. أو أعرف ماذا تريد (ب) من وراء صمتها الطويل، لو.... اضطراب العالم. المويقات، الانقلابات الدموية، الاتجاهات الإباحية، (ك) معي دائما، لإخلاص من أخفقت من الوسائل والأساليب وانهارت كل الأمس التي بنيتها لإيقاف زحفك عند حده، أسوار، تعاويذ وتمائم ومدينة الصمت حبلي، العاقر ستلد، سأنتظر أن تقترب مني وتضع يدك بيدي، يلتقي النهران الغريبان بعد رحلة عاتية في جوف الصحاري والضياع، ولكنك لا نملك الوقت.

وقد أفرد كثير من العلماء النقاة كتبا كثيرة عن هذا الموضوع، مضافة إلى ما ورد في مؤلفاته من اراء كانت عونا للدراسين والباحثين في شرح موافقه من.

- من ه؟
- لا أدري! إنها مجرد ورقة التصقت بحذائي غفرانها لك.
- وإلى أين تريد الوصول؟
- لا أدري! ألم تطلب من أن أبدد وحدتك؟
- ألا ترى أننا بدأنا نخسر السنين؟

- ونخسر كذلك الصوفية البيضاء التي كنا نعامل بها الأشياء.
- ولكن (ب) لم أخسرها ولم أربحها.
- وهل تعلم أن الكثير من البقراء يدعي بطلب الإصلاح المزيف عني منا تعرضت مصالحهم الشخصية إلى الخطر؟ إذن فالأجدر بهم أن يناموت ويغفلوا جيداً حتى...
- لا تعد إلى القراءة.
- قلت لها: إنك فاتنة جداً عندما تريدين الألوان القائمة!
- إذن لننهض.
- أحب الجسر.
- أحب النهر.
- أحب الزوارق.
- أحب الشواطئ.
- أكره النوم.
- أكره الأكل.
- أكره الحجارة.
- أكره الجدران.
- اود لو أطير.
- أود لو أعرب.
- أود لو أراها.
- أود لو أحبها.

(مازالت أنظر أن تلمحيني يوما، أيتها المرأة التي كدت أن أصلب أمامها، ولكنني ابتسمت وأنا أراك تنسحبين، لقد أدركت أنك أصفر من كلماتي وأوهي منها، مددت لك يدي لأ نتشلك من عالمهم، ولكنك ذهبت، وهكذا حجبت عنك كلمتي التي كادت أن تنفلت من بين شفتي، أنا مكابر كبير أهتم بأعماقي دون أن أفصح بكلمة تدينني وتسقطني تحت الأقدام، ولكن عندما تملين سأرغم شفتي على النطق).

- معلومات جيدة من مصلحة نقل الركاب.
- ستعتلي بها صفحة المحليات إذن.
- الجريدة بحاجة إلى انتصارات صحفية.

"تمحيص الناس وامتحانهم كما امتحن الله قوم نوح بطول عمره وتأخير الفرج عنه وعن المؤمنين به، ليتسببن صبر المؤمنين ونفاق المنافقين" وها هي الأسباب قد بهلت كلها، استقر وراء منضدتي، قلمي يسطر حصيلة جولتي هذا اليوم بين الأسواق ودوائر الحكومة، ولكن (ك) لم ينطق كدت أن أنساه ولكنه أنبثق في رأسي كالنبع، ووردت لو يواجهني يوما، ينطق بأي حل يرضيه، لا أريده أن يقاومني هكذا، لماذا لا يلوذ بدروب غير التي تؤمها قدماي؟ حتى متى يبقي جافا متوحداً منفيا ويطاردني هكذا؟

- هيئ مقالتك بسرعة.
- ستكون عملاً بسرعة.
- منذ مدة وشعر القراء لم ينتصب عند قراءة كلماتك.

- إنني أبحث عن جريمة.
- ألا تجيد غير هذا؟
- ولماذا لا تحاول أنت؟
- لم أفكر.
- وماذا كنت تصنع؟
- قلمي حبره أزرق، وقلم أخي حبره أسود، وأبي يحب اللون الأخضر، وأشتهي أن أكتب لها رسالة بحبر أحمر، ألوان الطيف الشمسي سبعة، هات منشوراً زجاجياً ولنخرج إلى الساحة لأريك هذا.
- مصلحة المجاري أغلقت شوارعنا.
- (رجل بلا ظل) رواية جنسية جديدة لكولون ولسون اشتريتها البارحة بنصف دينار.
-
- فرجينيا وولف تظهر في العربة لأول مرة (الأمواج) رواية مقفلة.
- (هوشي منه) شاعر يتحدث عن النصر.
- عاد الولد من المدرسة.
- قارئ الكف والفنجان.
- أحس بأنني ضفدع!
- أحس بأنني سأحبها يوما بعد كل هذا الارتماء الطويل على عتبات الجنس والنساء، ولكنها...

- تلفت نظري المرأة المكنترة!
- نم مبكراً واستيقظ مبكراً.
- راقبتها وكدت أن.....
- ماءت القطة.
- صهيل الحصان.
- نبح الكلب.
- صاح الديك.
- استيقظ قلبي.

(ك) الغربة المجهولة في عينيه الزائفتين، رأيته هناك، (أ) رأيتها أيضا، كانت شاحبة وبرفقة أمراة أخرى، وكاتب الأرصفة تتقاذف جسدي الثمل، حاولت أن تكلمني، رأيت خطواقا تعبر الشارع رغم تقاطر السيارات، مازلت أتذكر دموعها، لقد ذبلت عيناها، ولم تعودا براقتين صافيتين كما كانتا، ترى كم من الرجال أشعل فييهما الرغبة بعدي؟ مرة رأيتها في درب مكتظ، وأخرى في المطار، وها أنا أراها الآن، لماذا لا تنساني؟ لقد انتزعتها منذ سنوات، أنا إنسان يجيد اللبس والخلع أيضا، العادة وحدها تدفعني، فقدت الأشياء عذوبتها، (ب) مازالت نتبلور وترسخ في حياتى. (أ) ضاعت، رأسي يهمد كالخشبة على وسادته، لتصطخب الأحلام، لكن (ك) أيها الاله، أيتها المقدسات، (ك) دمرني، استفزني، حملني مالا أطيقه، مالا أستسيغه، سأمزق ثيابي وأركض منددا بهذا الذل الذي يحاصرني، هذا اللغز الصامت، لماذا لا ينطق؟ لماذا لا يحتجب؟ أريد أن أطمئن، أن أسمع صوته، أن أعرف هويته، أن أبيده، أن

أنهيه، هيا هاتوا السلاح، سأمزقه، أنه أمامي، يتحداني، يشعرني بوهني، يلغيني، أيتها المقدسات، لكنه لن يفعل ذلك، لن يطيق، لن.....

– ما بك؟

– جائع جدا، ولكني لا أعرف ماذا آكل!

– سيقدم لك خادم المطعم قائمة بأصناف الطعام التي يمتلكها.

ودلفنا إلى أحد المطاعم الخالية، العمال يجمعون الكراسي ويصفونها فوق بعضها، وعندما استقر جسدي على الكرسي رفعت عيني متطلعا إلى صور، وارتجفت، وشعرت بأنني قد غليت سقطت تحت الأحذية، وكدت أتحول إلى فأرة تبحث عن زاوية تختبئ فيها، استمسكت بالمنضدة وبدأت أسترد كياني المضطهد، وتجمعت، تصلبت في مكاني، كززت على أسناني ونهضت وخطوت صوبه، وعندما رآني نهض مبتسما ثم مد إلى يده، ولم أجد لدي القوة على إطفاء هذه البسمة الطيبة التي يمنحني إياها لأول مرة، فمددت له يدي أنا الآخر، صافحته ثم ابتسمت له بود.

- أظن المصعد معطلا؟

وأخذنا نضرب بأيدينا على زجاجة بقسوة، وعندما فتح الباب تصافحت الأيدي، وتبودلت كلمات الوداع، واحتجت كل جسد من الأجساد الثلاثة في مكتبه.

الميادين واسعة وقد قرات عينيه جيداً ومن السهولة أن أتحرر منه الآن.[7]

---

[7]من مجموعة (المواسم الأخرى).

صفحات منكسرة من تاريخ المدن الذي انتصرت

(الواجهة الزجاجية ورجل ببدلة عمل زرقاء يحمل على كتفه سلما خشبا يمر أمامها. والد كان المواجه موارب بحديد مشبك تظهر من ورائه البضاعة مغطاة بالظل. القسم الأكبر من الكراسي ذات المقاعد الحمراء فارغة وقد رصفت على شكل دوائر حول الموائد التي تتوسطها أوراق الكلينكس ملفوفة ومثبتة في أقداح فارغة.

إلى اليسار أعمدة طويلة تمتد حتى السقف. قاعدتها مطلية باللون الرصاصي. والستائر بيضاء من نسيج ناعم سهلة الانقياد مع تيار الهواء الذي يدلف من الباب الجانبي المواجه للشارع العام محملا برائحة الكباب المشوي.

وفي الطرف الأيسر وجوار الواجهة يجلس رجل أبيض ذو قميص أبيض أيضا قصير الكمين. وكان يأكل بسرعة وكأنه مرتبط بموعد وقد تأخير عنه، ويتلفت إلى يساره بين وقت وآخر حيث أربعة شبان يحيطون بمائدة واحدة تغمرهم مودة ناعمة ونرنفع أيديهم بملاعق الطعام وأقداح البيرة. أما الناذل فيدور كالرقاص بين الموائد ملبيا طلبات الحاضرين.

منذ أن قدم طاهر عبد الله العيسى إلى هنأه بمهمته الثقيلة التي أقيد إليها. وترك قريته المطلة على نهر ديالي مكتئبا حد العتمة، وأغلق كتاب

الفرح الذي لامس أجزاءه حتى النخاع، حدث هذا يوم الإجهاض عندما حوريت الجهة السياسية التي تضمه وزج بالعشرات من رفاقه في المعتقلات لكن طاهر لم يرضخ ولم يسلم رأسه لمن أراده واختار القرار.

كان صباحا ناعما تصحو فيه القربة على ثغاء الأغنام وخوار الأبقار مغمسا بصياح الديوك وتراتيل الصلاة عندما كان يخطو خارج القرية متنكراً بزي أعرابي ملثم. وبين النخيل والقرى الصغيرة المتباعدة وخيام البدو شق طريقه حتى وجد سيارة الحمولة التي أقلته إلى هذه المدينة.

"يفتح الباب الزجاجي وتدخل موجة من الشبان تشغل إحدى الموائد الفارغة. أحد أفرادها لا يجد له مكانا، يذهب باتجاه المائدة الأخرى ويسحب كرسيا يرصفه مع كراسي زملائه الأربعة. الجميع يرتدون بدلات داكنة ما عدا واحدا انفرد بقميص أصفر قصير الكمين وكان أكثرهم تحمسا لشرب البيرة". واختفى طاهر عبد الله العيسي في أحد أزقة "السعدون" في غرفة طالب قريب له. بدأت الحياة بمدارها الجديد، أليس كذلك؟ وما عليك إلا أن تهز رأسك راضخا لا تنصت السمع لصوت، أو تحمل جسدك المطلوب إلى ثكناتهم وتقول لهم: خذوه. ولكنك لم تفعل ذلك، كان الجور كبيراً، هنا أهدأ وهذه السماء التي تتوج رأسك تخبئ مليون نجمة فمن يدري متى يكون الصحو؟ الشوارع الجانبية تعرفك، تخطو بين أجساد لم نشخص حالتك. وتستقبلك عيون لا تعرف لها هوية، مدينة مترامية تطحن الوجوه والأحداث، وتستهلك المهمات والمشاعر، ويظل كل لسان متدليا طالبا أمانه الخاص.

"يدلف صبي يحمل صندوقا خشبيا يتدلى من حزام جلدي يلتف حول عنقه ينادي ببضاعته: سيكائر، سيكائر. يدور بين الموائد، يبع عدة سيكائر أجنبية مفردة للشاب ذي القميص الأصفر القصير الكمين، ثم يبدأ الشاب بتوزيع ما اشتراه على رفاقه. الشاب الأبيض ذو القميص الأبيض ينتهي من تناول طعامه. ويبقى في مكانه نحو الحاضرين بفضول غريب".

إنها مدينة أخرى، لا تعرف ذلك العناق الساخن الذي رضعه من وجوه قربته. الأحساس بالصداقة والقرابة يصبح هنا مجرد خيوط واهنة سريعة القطع ولن تكون وثاقا متينا من الود والإيثار.

كان طاهر قد فرغ من شد رباط حذائه عندما التقط قطعة القماش كانت جزءاً من ملابسه الداخلية وأخذ يمسح بها حذاءه مزيحا عنه غبار التجواب. رفع أكمام قميصه إلى أعلى وبدا بجسمه القصير المشدود قويا ومتوثبا كأبطال الكروباتيك. أقفل باب غرفته وعندما أصبح في باحة البيت جالت نظراته باحثه وتوقفت أمام غرفة ناهدة ابنة صاحبة البيت، ثم رفع لها يده محييا بينما راحت يدها تعيد شعرها المتطاير مع هواء المروحة إلى مكانه، أعقبت ذلك بعضة ماكرة على شفتها ثم بضحكة مكتومة. واستجاب طاهر لهذه البسمة التي لا تعرف غيرها في هذه المدينة. قبلت ناهد أطراف أناملها بع ذلك ورجمته بقبلة تعلمتها من الأفلام التي يعرضها التليفزيون، وجعلته ينطلق فرحا في أحشاء الزقاق الملتوي مطرقا لا يريد لوجهه أن يصافح وجها قد يعرفه، رغم أن الأمل

لم يفارقه قي لقاء وجه رفيق يعاود بواسطته الاتصال بمنظمته السياسية ثانية.

"نهض الشاب ذو القميص الأبيض.. وظل واقفا في مكانه وعندما رآه النادل أسرع إليه، واستخرج النادل قائمة الحساب وأخذ يعدد له ما أكله وما شربه ثم قدم له الشاب ورقة مالية أعاد له ما تبقى منها. بعد ذلك خرج من الباب برائحة الكباب، فاتسعت فتحتا أنف أحد الجالسين على المائدة الواقعة على اليمين فنادى النادل طالبا صحنا من الكباب مع البصل المشوى".

قرب الباب الواقع على الجهة اليسري مائدة مازالت فارغة فوقها منفضه سيكائر صفراء مزركشة فيها ثلاثة أعقاب حمراء وعود ثقاب واحد، وفوقها أيضا مملحة طويلة من زجاج أبيض رخيص مع قدح فارغ".

تحسس جيبه مطمئنا إلى ما تبقى فيه من نقود. وابتداء دورته المعتادة. الجلوس في مقهى متزو، قراءة الجريدة، الثرثرة مع أناس لا يعرفهم. وأطرق وهو يمسح بيده على جبينه الصغير ويستسلم للإنشاء اللذيذ مع دخان سيكائر إنهم يسورون المدينة، يمشطونها من بقاياكم، ماذا يهيئون لخاتمتك؟ لقد خرج في الصباح إلى مكان تجمع العمال في ساحة "النهضة" ولكنه لمح وجها من مدينته يجهل موقفه منه فأسرع هاربا واختفي في الزقاق.

الأزفة دوما، والرغبة في المشي بقامة منتصبة في شارع عام بدأت تحتضر التوقف أمام واجهات المخازن. الجلوس في ملهى ليلي.. تمتد يد الخرس عليها.. وجودك القلق لن يدعك تطمئن لمرأى وجهه.. ولا تعرف إيا من هذه الوجوه الكثيرة التي نتقيؤها الأزفة والدوائر والبيوت تأتمنه؟ أيا منها تصافحة بود؟ إنها وجوه مهمومة كدرة، تقتلها مشاغلها الخاصة، وتعكس فرديتها وتوحدها رغم مافيها من براءة وغباء.

"يدخل زبون طويل في الثلاثين من عمره يلفت فيه النظر حنكه الطويل ونظارته السوداء العريضة التي تغطي أكبر مساحة من وجهه وتحجب وجنتين العاليتين. وكان يخطو خطوات عريضة وكأنه يمشي في شارع فارغ. ذهب باتجاه صاحب المطعم وتحدث معه بضع دقائق سلمه بعدها صاحب المطعم حزمة من النقود وضعها في جيبه وأخذ يخطو خارجا، وكانت اَثار التعرق منطبعة على ظهر قميصه الداكن اللون. وعندما فتح الباب ثانية استقبلت نظرات الزبائن. وحتى رجل آخر نحيف أيضا، ولكنه قصير ومهموم. وجلس فوق أقرب كرسي فارغ صادفه. ثمة ثلاث فتيات ببنطلونات فضفضاضة الأطراف مزركشة وأحزمة حديدية كالسلاسل ترتمي فوق القمصان الطويلة، وكان شعرهن طويلا وهفهافا ومنظرهن يبدو كمنظر عارضات الأزياء. يأخذ الزبون الجديد ينقر سطح المائدة بأطراف أصابعه فيسرع إليه النادل".

في قريته أحلام ورؤى، ذلك الجو الممتد كالفرحة، الناعم كشعر الحبيب، يركض فيه المرء مفتوح القلب والحواس، ولكن طاهرا مختنق

هنا، مكفوف يتحسس طريقه في دروب ملونة، لا يعرف متى يصطادونه. أيام باهظة، تتبدد فيها الصداقات بسهولة. والعناق غير العادل بين الأضداد. الأحداث تتعاقب دون أن تمهله بعض الوقت لينتعم بلذائذه الصغيرة التي عرفها في زمنه ، العلاقات الناعمة، والأحاديث البيضاء. واليوم هاهي طقوس الرعب والكتمان، الرغاب المرتجفة، والفرح الضرير، القمر يضيء، ولا أنشودة تسري كالنبيذ للقلب فتحمله من خنادق الأسر والمطاردة إلى جزر العقيق وحقول الزئبق والياسمين. دارت الطواحين، جرفت، أحرقت، امتدت إلى التلافيف والمنعطفات، لطمت الحلق، أغلقته، سحقت الجسد بمكبس من الرخام، عجبته دارت به ثم القته كالرمم.

"فرقعة الملاعق تتناهى إلى أسماع الحاضرين الذين يزيدون أصداءها بضوضائهم. وعسكر دخان السكائر في الفضاء، وبدأت زجاجات البيرة الفارغة بالازدياد وهي ترتصف على مائدة الشبان الخمسة على اليمين، وكأن شاربيها يصرون على إبقائها أمامهم إعلاناً عن بطولة أفتقدوها في مجالاتها الحقيقة، يخلع أحد الشبان سترته ويعلقها على ظهر كرسيه فيلحق به الآخرون متلدين كالقرود. وتظهر قمصانهم الرطبة من التعرق. ويأتي من الشارع الرئيسي صوت سيارة إسعاف يعلو على كل صوت آخر فتلتفت كل الوجوه بدفقة واحدة مطلة بخدرها وفضولها. وعندما يبدأ الصوت بالتلاشي تعود الوجوه إلى أحديثها وقهقهاتها وبيرتها ودخانها.

تتوقف سيارة بيضاء "مرسيدس طراز **1969**" ينزل منها رجل أوروبي الملامح، أشقر وبدين بعض الشيء، له لحية مدببة أنيقة، ويدلف إلى الداخل متجها صوب المطبخ ويشتري بعض الأطعمة الجاهزة ويخرج عجلا، كانت تنتظره في سيارته امرأة تشبهه وإن بدت ملامحها باهتة من خلف الزجاج وهي تضع يدها على خدها بينما تسند مرفقها على ركبتها وهي تنظر".

لقد قال له قريبه الطالب الجامعي عند الصباح:

- إن وضعك مؤلم ياطاهر.
- وماذا أفعل لإنهائه؟
- لا أدري، ولكن تهربك هو بمثابة إطالة الحياة لمحتضر يتوسد فراش النهاية، لابد أن نختتم وضعك الاستثنائي هذا بحل.
- أريد أن أظل واقفا حتى الأخير.
- وهل التهرب وقوف؟
- ماذا تسميه إذن؟

أنت المرهف العجيب يا طاهر... الضامر... الثوري المرتجف أنت والمتناقض، الحيرة الزئبقية التي لا تستقر في واحة أمان.. ها أنت اليوم نذر في قداس الألم حيث تمت الطقوس كما خططوا لها.. كلمات الرثاء بكم وصمم.. القلب الصافي.. يد الحب والصداقة.. وحناجر الصبيان هل يصبح نشيدها نحيبا؟

"علو الجدار حوالي الخمسة أمتار، طلبت قاعدته باللون الرصاصي، بينما طلي الباقي بلون أصفر باهت بقرب من لون التبن. لم تعلق فيه صورة واحدة ما عدا قطعة بيضاء صغيرة هي إجازة المحل من قبل وزارة الصحة، أما الجدار الذي يقع على اليمين ففيه المطبخ والمرافق الصحية، كما أن فيه سلما يقود إلى فسحة في الأعلى تصدرتها قطعة وسهم يشير إلى أن هذا القسم خاص للعائلات فقط.

أما فوق المطعم مباشرة فهناك فندق من فنادق الدرجة الأولى في المدينة، ولكنه يبدو صامتا في أكثر الأحيان وكأنه خال من الرواد، في السقف ثلاث مراوح موزعة بخط مستقيم على إمتداد المكان، وهي تدور ببطء إضافة إلى جهاز التبريد الذي يسمع له صوت أشبه بصوت محرك سيارة بعيدة، الذي لا يركز الانتباه إليه لا يسمعه إطلاقا. في أول أيامه كان هذا المطعم أكثر أرستقراطية وكان وراده معدودين وأنيقين. لكنه الآن فقد مجده بعد أن بدأ زحف الأقدام الأخرى نحوه وخفضت أسعار إلى حد النصف. أما في الليل فإن الزبائن ينفضون عنه ويفضلون إمضاء لياليهم على شاطئ أبي نواس في واحدة من حاناته المتراصة. الأقبال الوحيد عليه يتم في الشتاء حيث يستطيع الجالس فيه أن يستعرض القادمات من وراء الزجاج، لاسيما اللواتي تلفظهن سينما "سميراميس" وفي الزاوية يجثم صاحب المطعم بحجمه الكبير وأمامه تدور مروحة منضدية بأقصى سرعتها، مما اضطره لأن يضع قطعا من الرصاص على أوراقه مخافة أن تتطاير وتملأ المكان".

اشترى طاهر عبد الله العيسي جريدة وبدأ بقراءة عناوينها البارزة وهو يمشي. وعندما مل من ذلك طواها ووضعها تحت ابطه واستمر في المشي. مسدوداً. كان الزقاق فارغاً تماماً وعندما تلفت لم تسقط عيناه على وجه أو نافذة ففتح أزرار بنطاله وأخذ يتبول في الجدار.[8]

[8]من مجموعة (عيون في الحلم).

صالة العرض

(1)

أخذت خطواته القصيرة اللاهثة تهرول في الممر المؤدي إلى صالة العرض. وكان ينوء يحمل كرشه المستديرة ومعطفه الكالح الطويل. وقبل أن يدلف في الصالة توقف قليلا. خلع المعطف ثم بدأ ينفضه حتى تساقطت قطرات المطر العالقة فيه. بعد ذلك ارتداه وهو يهتف بحنق:

تورطت في الخروج. لم أدر أن المطر سيكون شديدا لهذه الدرجة.

ووضع أولى خطواته في الصالة، كانت فارغة تماماً. ويبدو أن برودة الشارع قد تسربت إليها، لذا لم تفلح المدفأة الغازية الموضوعة في وسطها في أن تحيل البرودة إلى دفء يفترش صليل العظام.

"هذا فنان يحاول أن ينجز عملا مختلفا، إنه لا يكتفي بتسجيل القيم الجمالية للأشياء فقط، ولكنه ينشد الإيغال في الأعماق بحثا عن الكنه، وتهمه الروحية أكثر مما يهمه اللون، كما تهمه العاطفة أكثر مما يهمه التكوين".

واقتحم عليه صوت الرعد وحدثه.

- يبدو أنني سأظل سجين هذه الصالة؟

كانوا ثلاثة فلاحين، يقف اثنان متقابلين، وهما يمسكان بحزمة كبيرة من القصب. أما الثالث فكان منحنيا يحاول غرسها في الحفرة المهيأة لذلك، وكانت سيقانهم القوية تنبت في الأرض بأصابعها الكبيرة.

مد رأسه إلى الأمام، تملى اللوحة، ثم بحث عن اسمها في الدليل، وجدها تحمل اسم "تشيد الأكواخ" كانت مستطيلة. وقد وزع الشخوص توزيعاً يملأ المساحة كلها. أما الفراغات المتروكة إلى الخلف فقد أعطاها لونا فاتحا يميل إلى الصفرة قليلا، لكنه لم يهتم بإظهار أي تعبير على وجوه الفلاحين الثلاثة. وقد اكتفى بالتركيز على أقدامهم.

اللوحة التي تحمل رقم (12) كان اسمها "صيادو الأسماك" قرب وجهه تحسس سطحها بإبهامه. رجع خطوتين إلى الوراء، صيادو الأسماك، لكنهم ليسوا الصيادين الذين يعرفهم، والذين طالما راهم على شواطئ دجلة، يسحبون شباكا كبيرة باتجاه الشاطئ، ولا حتي أولئك الذين يلقون بشبكة صغيرة في النهر وهم يقفون بموازنة دقيقة فوق مقدمة مشاحيف [9] الصيد الصغيرة. أبداً.

إن أمامه خمسة من الرجال الضخمين، يمشون في ممر ضيق بين الماء. لا يتسع إلا لمرور رجل واحد فقط. لذلك تقاطروا بانتظام وأداروا رؤوسهم باتجاه قرية بعيدة، وكان كل واحد منهم يحمل على ظهره سلة كبيرة يبدو أنها صنعت من أغصان أشجار الغرب. وكانت رؤوس الأسماك وأذنابها من فوهة السلة. وقد خيم على اللوحة كلها ظلام طفيف. مما

[9] مشاحيف: جمع مشحوف، وهي سفن صغيرة تسير بالمجاذيف ويكثر استعمالها في الأنهار.

يدل على أهُم في طريق العودة إلى قريتهم. كما يلاحظ أن الرسام لم يفلح في إعطاء الماء اللون المناسب لمثل هذا الجو. إذ رسمه مشرقاً أكثر مما يجب. وكانت أرجل الصيادين ضخمة أيضاً. أصابعها كبيرة مغروسة في الوحل، وكأنها لا تريد أن تبرحه.

مد يده في جيبه. واستخرج دفتر ملاحظاته. ثم دون عدة كلمات.

لقد قال له رئيس التحرير بشيء من الجفاء:

- لابد أن تهيئ الموضوع، ثلاثة أيام وأنت تعدني بكتابته.

أجاب مؤكداً:

- سأنجزه اليوم، أعدك.

وأضاف باشاً:

- أتريد الصدق أنني غير متحمس لهذا المد عن المعارض؟

إنها تكرر بعضها. ولذلك بدأت أكرر أقوالي عنها.

وعلق رئيس التحرير حاسما النقاش:

- أنت محق فعلا. ولكن ما العمل؟ هذا هو الموجود. وصفحات المجلة يجب أن تمتلئ.

(2)

تمتم في سره:

- حمدان الكعبي؟ من يكون هذا الاسم؟ إنني أسمع به لأول مرة. أسماء كثيرة. ومعارض أكثر، لكننا بها لقب فنان بسهولة. هكذا دون تساؤل يا للسماء!

(3)

امراتان حزينتان، تضع إحداهما يدها على خدها. أما الأخرى فتجلس جوارها، وقد احتضنت ركبتها المثنية بينما أقعد كلب أبيض جوارهما. كانتا في هذا الوضع وأمامهما انطرحت جثة حصان كبير.

ومد أبهامه. وتحسس سطح اللوحة، فوجد أن الرسام قد كدس الكثير من الألوان فوقها. وتذكر ملاحظة قرأها ذات يوم حول كيمياء الألوان. أن هذا من شأنه أن يفسد اللوحة بعد أن تتكسر هذه الألوان نتيجة لسمكها، ولتقلبات المناخ أيضاً.

وحاول أن يحرز اسم اللوحة، وقال:

- إنها الموت، أو الجوع، أو أي شيء من هذا القبيل

وعندما قرأه في الدليل وجد أنه "العطش".

- لم أذهب بعيداً. لقد كنت مصيبا.

أحس أن جثة الحصان بلونها الأبيض المشرق تبدو غير متماسكة أو متنميه لبقية التكوينات. على الرغم من أن الرسام أراد أن يجعلها جزءاً من الحزن ومتممة له. إذ لولا "العطش" لما مات الحصان وانطرح هكذا فوق التراب. كما أن صورة الكلب قد نفذت بطريقة سريعة رغم أن وجودها كجزء أساسي من اللوحة يحتم عليه أن ينقذها بنفس تكنيك الأجزاء الأخرى.

ضحك فجأة. تخيل الحصان يضحك، هكذا هو في انطراحته، لقد رأى الكثير من الخيول المعافاة تنطرح على الأرض. وتحك ظهورها فيها، آنذاك تبدو وكأنها نضحك. كأن هناك من يدغدغها.

ضحك لضحك الحصان.

استخرج دفتر ملاحظاته، وسطر كلمات جديدة. لكنه قبل أن يعيده إلى جيبه انتبه إلى مسألة مهمة حققها الفنان، ربما بفطرية ودون قصد واع.

إذا إنه استعمل الفرشاة بحركات ليست ذات اتجاه واحد. حركات مختلفة ومتداخلة. وذات ألوان متناقضة، مما يجعل الرائي المتأمل لها يحس وكأنها تقوم بشد أجزاء اللوحة المفككة إلى بعضها.

لو أنه أعطى الحصان لونا آخر لربما أنقذ اللوحة من حالتها غير المقنعة.

(**4**)

دلف شاب وفتاة. كانا يلهثان ويضحكان أيضاً. ويبدو أنهما قد قطعا الطريق من موقف الباص إلى الصالة ركضا. وانشغلا برهة بنكث المطر العالق بثيابهما. ثم سحبا أقدامها بقطعة السجاد المفروشة في المدخل.

تمتم الشاب بلهجة غير واضحة القصد:

- يا له من مطر ثقيل!
- سيصحو الجو حتما.

ثم أضافت:

- دعنا ندخل. الصالة أدفأ.

وهز الشاب كتفيه بلا مبالاة وهو يعلن.

- ماذا وراءنا؟ لتمطر عشرة أيام.

(**5**)

- كيف يموت الحصان وهو على هذه الضخامة؟ كان عليه أن يرسمه ضامراً وهزيلاً حتى يبدو موته مقنعا.

كتب الملاحظة وتحول إلى لوحة أخرى.

زوارق صغيرة برؤوس مدببة وعالية. في كل منها صياد يمسك بـــ"الفالة" محاولا أن يغرسها في جسد سمكة. الزوارق موزعة على هيئة مثلث قاعدته في أسفل اللوحة. ورأسه في أعلاها تماما.

كانت أول ملاحظة تسجل على اللوحة أن الصيادين لايمكن أن يوجدوا بهذا الوضع داخل النهر. إنهم مصطفون وكأنهم جنود في مسيرة.

- إن وضعهم في لوحة الصيد السابقة كان مبرراً لأنهم يمرون في طريق ضيق لا يتسع إلا لشخص واحد. أما هنا فالمسألة غير مقنعة أمام هذا الفضاء المائي الواسع.

وعاد فانتبه إلى ملاحظة أخرى جاءت لصالح اللوحة هي أن حركات الصيادين المختلفة، والتي يظهرون فيها كرماة الرماح قد أعطت اللوحة إيقاعا صافيا. ازداد صفاؤه مع الانسياب الرائق لحركة الماء الممتلئ بالظلال الصغيرة، ظلال الصيادين والزوارق والأعشاب المائية.

(**6**)

ضحكت الفتاة وقالت:

- المدافئ الغازية مضرة. لدينا في الدائرة مثلها، أصاب بالصداع عندما أشم رائحة الغاز المتسرب منها.

وتمتم الشاب:

- وماذا نفعل أمام هذا البرد الشنيع؟

تنصت إلى حوارهما وأعلن بصوت كاد أن يكون مسموعا:

- منقلة الفحم أروع. تتوسط الغرفة ونحن حولها. وفي وسطها إبريق الشاي. والقطة تندس تحتها. وحكايات الزير سالم وألف ليلة وليلة. رحمك الله يا أمي!

ثم أضاف متحسراً.

والله زمان .

مد يده في جيبه. واستخرج منديله ثم تمخط بصوت عال.

نظرت إليه الفتاة باشمئزاز ثم أمسكت بذراع رفيقها وسحبته مبتعده قليلا اللوحات تتعاقب امرأة طويلة جدا امتد طولها من قمة اللوحة إلى أسفلها. أعطته وجهها وكأنها تف أمام كاميرا. كانت ترتدي عباءة وقد شدت وسطها بحزام من القماش الأسود. بيدها اليمنى منجل. وخلفها تنتصب معزة صغيرة. أما خلفية اللوحة فلم تدلل على الجو القروى. بل امتلأت بمربعات ومستطيلات ذات ألوان عميقة وفاتحة وأخرى بين بين.

ودان ينتزع هذه اللوحة من مكانها ويرميها خارجا. جوارها تماما لوحة أخرى تمثل مجموعة كبيرة من الفلاحين بعباءاتهم وثيابهم البيضاء وعقلهم مستقرة فوق رؤوسهم، كانوا يشكلون دائرة ويمسكون بأيدي بعضهم.

ولم يجد صعوبة في معرفة موضوع اللوحة. إنهم يرقصون بلاشك. كجزء من طقوس الفرح التي يؤدونها. ثم وجد أن هناك مجموعة مختلطة من القرويين تراقبهم، بعض النسوة وضعن أيديهن على أفواههن مزغردات المراقصين ليشحذن هممهم في تأجيج الرقص.

(7)

الفتاة والشاب يتمشيان وسط القاعة. هي مازالت ممسكة بذراعه، وكانت لا تستطيع كبح فرحتها. ولم يبد عليهما أنهما ق دخلا من أجل مشاهدة المعرض.

- لا بد أن المطر أرغمها على الدخول.

أطلق حكمه ثم أخذ يراجع ملاحظاته. ووجد أنها كثيرة.

- ستأخذ أكثر من صفحتين. المكان المخصص لي صفحتان فقط. حسنا. سأختصر.

وعاد يفكر:

- سأصور لوحة الصيادين للتدليل على قدرة الرسام في تحريك مساحة اللوحة وإحيائها. كما سأصور المرأة للتدليل على النقيض، لكن لابد وأن أثبت أن الفنان يعيش عالم لوحاته. وهذه

مسألة أساسية يجب أن أذكرها بصالحه. إنه ينسج بل يفجر عالما تعشقه.

خمس نساء. وجوه جميلة. وقامات ملتفة، كل منهن تمسك بمسحاتها في حركتهن تناغم عذب. كن يحفرن الأرض. وخلفهن تماما حقل من السنابل، وحاصده اقتطعت جزءا من هذا الحقل.

قرأ اسم اللوحة: "فلاحات"، وقادته قراءة الأسم الي ملاحظة جديدة أن الرسام لم يكلف نفسه عناء البحث عن عناوين غريبة للوحاته. وضحك وهو يتذكر بعض الرسامين الذينن كتب عنهم. وتوقف عند واحد بالذات. وقال:

- لو كانت من إنجازه لربما سماها "راقصة على أنغام السنابل" أو "الحصاد ووجوه الربيع الضاحكة".

لكن الرسام هنا مهتم كل الاهتمام بالأرجل والأصابع بصورة خاصة. إنه رسمها قوية تعرش في الأرض وتنبت فيها. وفكر بأهمية هذه المسألة في عطاء فنان، أن تأكيدها يعني الدعوة للتشبث بالأرض. دعوة بطريقة متفوقة وذكية.

وأخذ يتحرك مسرعا. مارا مرورا عابرا ببعض اللوحات ومستعرضا ما منها. وقد ركز انتباهه على الأرجل فوجدها جميعا تخضع لملاحظته.

(8)

قالت الفتاة لرفيقتها بلهجة من اكتشف شيئاً:

- انظر، ما بال الحصان؟

ثم قادته من يده باتجاه اللوحة وهي تضيف:

إنه نائم.

وقاطعها الشاب:

- لا أعتقد، أنه ميت. انظرى.

وأشار بيده إلى الفلاحتين. وتابع ملاحظاته:

- إنهما تبكيانه.
- ولماذا تبكيانه؟ ما قيمته؟

وهنا أجاب بلهجة العارف على تساؤلها:

- إنه عزيز عليهما. يؤدي لهما خدمات كثيرة في التنقل والزراعة، والحلم وفوائد أخرى.

وبدا صوتها ساذجا وهي تعود وتسأل:

- وما الذي أماته؟
- ربما لدغته أفعى:

ومدت سبابتها مشيرة:

- صحيح، انظر، أن جسمه متورم.

ثم سحبته وهي تقول:

- دعنا ننظر، هل توقف المطر؟

واتجها إلى باب الصالة ناظرين إلى جهة الشارع. ثم علا صوت الشاب قائلاً:

- يبدو أنه قد توقف. هيا بنا.

وخرجا مسرعين بنفس حماسها ومرحهما الذي دخلا وهما عليه.

(**9**)

نظر إليهما حتى غابا عن ناظريه. أطبق دفتر ملاحظاته ثم دسه في جيبه بعد ذلك خطا خارجا هو الآخر.

خطوة.. خطوتان.. وأصبح جسده في شارع خال يغتسل بالبرد والمطر.[10]

---

[10]من مجموعة (الخيول).

حدث هذا في ليلة تونسية

(1)

يتربع الليل على المدينة الآمنة، وتخيم الخضرة على السواحل والدروب وبساتين الزيتون، أما المباني البيضاء بأقواسها وأبوابها ونوافذها الزرقاء فتبدو وكأنها غيوم معسكرة في سماوات هادئة لاتعبث بها ريح.

يندس يوسف في سيارته المتاكلة التي تعود تاريخ صناعتها إلى الستينات، الطريق بين تونس العاصمة وشاطئ. "قمرت" صعب عليه، خصوصا أن نظاراته الطبية التي تزداد سمكا مع مرور الأعوام لم تعد قادرة على فرز الأشكال أمام عينيه، ولذا فهو يقودها بحذر مخافة أن يهبط في حفرة أو يصطدم بشجرة أو جدار، وقد حدث له هذا الامر أكثر من مرة، ولكن هذه السيارة لابد منها، لم يستغن عنها منذ أن اشتراها قبل أكثر من عشرين عاما من مهندس إيطالي، لأنه يستطيع بها أن يتحكم في وقته أكثر مما لو أخذ القطار باتجاه (المرسى)، والتوقف هناك وقتاً لايمكن تحديده من أجل الحصول على سيارة تاكسي.

أنه يعرف على الأقل كيف ينظم مواعيده بهذه السيارة الهرمة، متى يخرج؟ متى يعود؟ من شقته الصغيرة ذات الغرفة الواحدة في (شارع الحرية) وإليها، وغالبا ما تكون وجهته حفلالعرس، أو ختان، وهذا لا

يحدث يومياً، ولكن ما يحدث يومياً هو ذهابه إلى شاطئ "قمرت" حيث مطعم "الحلزون".

أما رحلات النهار ما بين بيته وشارع "بورقيبة" أو أحد المقاهي التي ترصع شارع الحرية ليشرب القهوة أو الشاي الأخضر ويثرثر مع بعض معارفه فيفضل أن يقطعها على ساقيه بناء على نصيحة من طيبيب مغرم بعزفه، حيث قال له بشيء من التحذير: "وزنك أكثر مما يجب، وهذا الثقيل يرهق قلبك لذا عليك أن تمشي ولو ساعة في اليوم من أجل أن يتحرك الدم في عروقك ونخف هجمات الضغط على شرايينك الملاي بالأملاح والكوليسترول".

ولكنه سئم من هذه النصيحة، وتمرد عليها، ولذا يدس جسده في الباص كلما وجد فيه فسحة وصولا إلى شارع بورقيبة ليشتري عددا من جريدة "لوموند" التي مازالت جريدته المفضلة منذ أيام الاستعمار، لا يشتري غيرها كلما فكر في شراء جريدة لمعرفة ماي دور في هذا العالم الذي غاب عنه بالخمرة والعزف، ولا يحدث هذا غالبا بل مرة في الأسبوع أو أكثر.

كل ما يدور في هذا العالم لم يعد يهمه، ولم يعد يعرف شيئا، ولا يريد أن يعرف شيئا أيضا، لقد انسحبوا كلهم من حياته، الأولاد والأحفاد والأقارب، كلهم حملهم الحلم إلى هناك ومضوا، بقيت معه الزوجة بضع سنوات ثم أخذهما نوبة قلبية مسرعة ليبقى وحده.

لكن يوسف لم يترك زيارة (الكنيس) كل يوم سبت، حيث يلتقي ببعض الوجوه التي يعرفها وأغلبها لرجال ونساء مسنسن لكل منهم أسبابه في البقاء وعدم الذهاب مع من ذهب إلى هناك.

في مطعم (الحلزون) يجلس يوسف في وسط الفرقة الموسيقية الصغيرة، وأغلب أعضائها من عازفين مغمورين أو مطربين لم يجدوا فرصتهم حتى في حفلات الأعراس، لذا ارتضوا بهذا المطعم السياحي، يتجمع بعضهم حول بعض في الفسحة التي أخليت لهم لتكون مسرحا بعدما أبعدت عنها بعض الطاولات ووضع بدلا عنها لوح خشبي يبلغ ارتفاعه نصف متر ليحطوا فوقه هم وآلاتهم وألحانهم.

وفي أواخر الليل عندما ينصرف اَخر زبون من المطعم يضع صاحب المطعم بيد كل منهم دينارين ويكونون بذلك قد ضمنوا سكرة الليل وطعامه ومبلغا لنفقات النهار التالي، وهكذا تمضي الأيام بيوسف وفرقته الصغيرة.

ست سنوات وهو يعزف في هذا المطعم ولست ليال متتالية كل أسبوع، لذا أصبح نجما بين الرواد، كلهم يعرفونه، ويطالبونه بأن يعزف لهم منفردا على اَلة القانون المتاَكلة التي رافقته منذ أيام فتوته.

كان يوسف أحمر شحيما، ينوء بحجمه القصير والممتلئ بأفراط، ومن هنا يجد صعوبة في الجلوس ووضع اَلة القانون فوق ركبتيه، ولذا هيأوا له مقعداً حتى لا تظل قدماه معلقتيين في الفراغ، وكان يضع على يمينه

طاولة صغيرة، فوقها الكاس والقليل من المارة، أما أصابعه الممتلئة القصيرة فإن أناملها الدقيقة بقيت محتفظة بخفتها ومرونتها وكان بهذه الأنامل يتلمس الأوتار ويعرف قوة كل منها ونوع النغمة التي تعطيها دون الحاجة لمد بصره الكليل إليها.

(2)

يتربع الليل فوق هذه المدينة الآمنة. وقد وصل يوسف متأخراً بعض الشيء مما أثار امتعاض صاحب المطعم بجسمه الضخم الطويل وساقه الاصطناعية التي لا أحد يدري كيف بترت؟ وأين؟

وكان عند تحركه بين الموائد يرطب الجو للرواد، مظهراً المزيد من الاهتمام بهم يلبي طلباتهم مسرعة. وعندما يفعل هذا فإن صوت نقر ساقه الاصطناعية على أرضية المطعم يسبقه، ولكن هذه الساق سرعان ما تتعب إثر الحركة وصليل البرد لذا ينكفئ إلي مقعده وراء طاولة في الزاوية ليراقب تحركات عماله وليرتب قوائم الحساب.

ها هو الشتاء يحل باكرا، ولذا فإن السياح سرعان ما يغادرون. ويكف الرائي عن مشاهدة أفواجهم وأغلبهم لعجائز منصابين، تعروا جهد إمكانهم من أجل أن ينعموا بالمزيد من الشمس وماء البحر، وانسحبت من شوارع المدينة وشاطئها سيقانهم المجعدة الهزيلة وهي تبرز من بنطلونات قصيرة وعريضة، أما الشابات فقد أخذن كفايتهن من

الشابين التائهين على الشواطئ وكأنهم صيادون يراقبون طرائدهم، ومضين وسخونة هؤلاء الشبان فيهن، يقارعن بها زمهير المدن التي لاتعرف الشمس ولا الدفء.

مطعم (الحلزون) يعانق البحر، لا يبتعد عن رمله وصخوره إلا بضعة أمتار، ومع حلول الشتاء يقتصر رواده على التونسيين الموسرين وموظفي الجامعة العربية ممن يعشقون خيرات البحر: السمك، والأصداف، والروبيان، وغيرها من "غلال البحر" كما يسميها التونسيون.

ولكن الروادیقلون، إلا أولئك الذين فتنوا بعزف يوسف وفرقته الصغيرة التي تشبع أفرادها بالروح الأصلية لموسيقى الشرق وأمرائها الكبار بدءا من سيد درويش وعبده الحمولي وعبد الوهاب وصولا إلى كارم محمود ومحمد عبد المطلب وعلي الرياحي والهادي جويني والجموسي وصليحة وغيرهم.

وعندما تتلقف أذنا يوسف كلمات الاستحسان التي تهتف بها الشفاه الحاضرة يتألق، يخرج من نفسه، من هيكله الشحيم، وتبرع أنامله في استنطاق الأوتار لتبوح بالأصيل والجميل، آنذاك يكون يوسف في أوج مجده، يكون الحاضرة الوحيد ويختفي كل ما مر به من وجوه وحكايا، وينسي كل شيء لتبقى الحياة لأنامله والأوتار وصيحات الاستحسان وطلب المزيد من الألحان.

يوما ما قالوا له:

- تعال معنا يا يوسف، رافقنا إلى هناك، خذ قانونك وستجد فرقة موسيقية تنضم إليها حتما.

وسمعهم يوسف وكأنه لم يسمعهم، لأنه لم يكن مقتنعا بما قالوه، أن الألحان عنده لابد وأن تنشد لأرض، لابد أن تعبر عن ذوق، ولابد لها من منصتين، ندخلهم بسرعة، تطربهم، وتلعب بهم، تماما كما تلعب بالرؤوس خمرة الليل.

كلهم يعرفونه، حتى بعض السياح المواظبين على زيارة تونس حيث يفدون إلى المطعم من أجل أن يسمعوه، وغالبا ما يحملون له بعض الهدايا معهم.

أحدهم قال له مرة:

- إنني أعتبرك أحد المعالم التي لابد من زيارتها.

وكان مثل هذا الكلام يزيده إصرارا على البقاء والغار إغراءات الرحيل إلى هناك نهائياً.

- إن ذهبت إلى هناك من يسمعني مثل هذا الكلام؟

(3)

بدا يوسف تداعبان الاوتار، الليل بارد، والمطعم البعيد لم يقصده إلا القلائل، توزعوا على بضع موائد، لذا بدوا نائين عن بعضهم بعضا، لم يقتربوا حتى وان ضمتهم مائدة واحدة.

لم تفلح أجهزة التدفئة في قتل البرودة التي تتمطي في باحة المطعم الواسعة بينما المطر ينهمر مدرارا، وتتثاءب الامواج وهي تغير على الشاطئ ترجمه بقوة ثم تنسحب وتعود لترجمه فيتطاير رذاذها حتى يصفع زجاج المطعم بصوت مسموع.

كانت الطلبات قد انهالت على يوسف ليعزف تحت الياسمينة وكانت موسيقى هذه الأغنية التي يؤديها معه مطرب يافع يطمح في أن تأتيه الفرصة فيسجل أغنية للإذاعة يوما، كانت هذه الموسيقي طيعة مع أنامل وأوتار يوسف وهو يتمايل انسجاما مع الإيقاع المتباطئ اللذيذ.

وكانت الرؤوس الأخرى تهتز معه، وهي تتلقف أطراف الاغنية وتروح ترددها بانتشاء، فترتفع الكؤوس بالانخاب، وتنبع الأحزان، وتكبر اللواعج في القلوب وتنأي المسافات.

(4)

في المطعم مائدتان شغلتا فقط، غزارة المطر تجعل الوصول متعذراً، ومن جاء فعلمه مغامرة حمقاء.

المائدة الأولى تضم ممثلاً ملتحيا وصحفياً فتيا ورفيقا ثالثا يميزه شعر أكرت ونظرات حائرة وتساؤل في القلب لم يجد جواباً.

أما المائدة الثانية فعليها أربعة رجال وامرأة بيضاء عقصت شعرها إلى الوراء وبدت مزهوة بسهوم عينيها، القريب منها رفيقها أو زوجها لايبدو أنها مقتنعة به ذلك فإن عينيها لاتستقران عنده بل ندوران في المكان وتتريثان عند وجوه الشبان الثلاثة على المائدة المقابلة، وكأنهما تنقبان عن أي منهم أقرب إليها حتى تتوقفا عنده وتستقرا لتنسجا ذلك التناغم الذي يستمد حرارته ونعومته من أوتار يوسف وصوت المغني، وهو يترنم تحت الياسمينة في الليل.

وكان الرجال الأربعة الذين معها لا تجد بينهم ضالتها، أو أنهم لم يقدموا لها كفايتها من الود ألفاظا أو فوق الفراش لذلك نأت عنهم وراحت تبحث عن الآخر، أو لعلها ملتهم لكثرة ما عايشتهم وعرفتهم في كل حالاتهم، والأربعة أوغلوا في إهمالها وأخذتهم الأغنية وأقداح النبيذ.

عيناها تدوران، لا تكلان، وعيون الرجال الثلاثة أمامها تتشهاها؛ تواجهها، ولكنها لم تحسم الموقف بعد، ولم تقرر على أي من هذه العيون البارقة بالرغبة والاشتهاء ستستقر؟.

(**5**)

المطر يحتدم، الموج يزداد غضباً، البرد العظام، يحتلها بضراوة وأنامل يوسف تصوغ اللحن الباذخ الغني، وصوت المغني الحالم، والندل، والمالك بساقه الاصطناعية، والرجال الأربعة اللاهون، والمرأة الباحثة، ووجوه الشبان الثلاثة التي نسيت كل شيء ما عدا تصيد نظرة من هاتين العينين الساهمتين اللتين تتوسطان وجه امرأة بيضاء عقصت شعرها الطويل إلى الوراء.

المرأة البيضاء نأت عن اللحن، عن الكؤوس، عن رفاق المائدة، عن أنامل يوسف لتقرأ ثلاثة وجوه تكاد أن تعريها، تغتصبها تحت المطر ورذاذ البحر وقصف البرد، تستعرضها، الممثل الملتحي الذي رأته مرات من شاشة التليفزيون، ولم تستطع أن تقدر مدي وسامته فقد أطلق شعر رأسه ولحيته وشاربيه حتى غيب كل ملامحه وأخفاها، الصحفي الشاب وجهه صغير ومدور، زرع فيه شاربين يميلان إلى الشقرة، لقد رأت صورته مرات في الصحيفة الاسبوعية التي يعمل فيها، ولكنه بد لها صغيراً ولن تجد فيه مرفأ الرجولة وأمانها الذي تبحث عنه.

أما الثالث الذي لم تره من قبل، ولم تعرف هويته، فهو مكشوف أمامها مثل بستان زيتون، شعره الأكرت ونظراته الحائرة، وأمور أخرى أوحت لنفسها أنها فيه.

نظرات هذا الغريب أكثر توغلاً فيها، أكثر حرارة، كلما داهمتها أحست بلسعة ما، في قلبها، في عينيها، في مسام جسدها، إنه يدخلها، يضاجعها، دون أن يترك على جسدها الفاتر قطعة من ثياب.

تعود المرأة الساهمة العينين إلى كأسها، تأخذ رشفة من النبيذ المحلى، ثم تلتقط سيكارة وتدسها في فمها، لم ينتبه أحد من مجالسيها لما تصنعه حتى يشعلها لها، لذا توقدها بنفسها.

الشاب الغريب ذو السحنة الداكنة يرفع كأسه وعيناه عندها، كأنه يهتف: "نخبك أيتها الجميلة" وعلى فمه تومض بسمة عاجلة لم تنعثر على محياه طويلاً ولكنها لها، إشارة، رسالة، إنها متأكدة من ذلك لذا قامت برفع كأسها هي الأخرى تجاوبا ورداً.

تلغي كل الوجوه من حولها، ويخفت هدير البحر، ويتوقف المطر عن الهطول، ويخرس الرعد العاتي، ويكف المغني، وتتخشب أنامل يوسف فوق الأوتار.

يبهت وجه الممثل الملتحي، ويغيم وجه الصحفي الشاب المفتون بشاربه المائلين للشقرة، أما الرجال الأربعة الذين يجالسونها فهم مجرد أشباح زائلة.

تلك المرأة الساهمة العينين، تلك المرأة المعقوصة الشعر لم يعد أمامها إلا وجه غريب، ديغته الشمس ولم تستطع أن تسرق منه بسمته العامرة بالرجولة والكبرياء، لم يعد أمامها إلا وجه لم تألفه ولكنها تحاول ذلك، تتمنى.

تنتهي الأغنية، يتحسس المغني الشاب أوتار عوده، تحت الياسمينة في الليل نضبت كلماتها، ليهتف الجالسون مطالبين بأغان أَخرى.

يوسف يضم قانونه بحنو، يدرون الأوتار من جديد، يشد البعض ويرخي الأخرى. يفعل ذلك في انتظار ما يستقر عليه المغني من طلبات تطلقها الأفواه الثملة.

صاحت هي وكأنها تنطق لأول مرة، كان صوتها ناعما ومجروحا. رفعته حتى يسمعه المغني.

زهرة البنفسيج.

وكأن طلبها كان القرار. إنها السيدة الوحيدة في المكان، فليكن اختيارها المستجاب أولا.

هتف المغنى:

- حاضر، أمرك.

وكان على الجميع أن يكفوا عن الطلب ويستعدوا للإنصات. يوسف يعرف الأغنية جيداً، ويعرف مغنيها الراحل أيضاً، رافقه مرارا في حفلاته التي جاب بها أنحاء تونس، وتمتم يوسف مترحما ومرددا اسم ذلك المغني الذي توقف قلبه وهو أمام الجمهور، ثم رفع كمي سترته إلى الأعلى حتى تأخذ أنامله حريتها.

ينسل الشباب الغريب من بين أصحابه ويخطو باتجاه صندوق التليفون، يتوقف هناك متظاهرا بطلب رقم، ولكنه كان يسجل اسمه ورقم هاتفه، يسيره اعتقاد جازم بأن تلك المرة ستلحق به حتما.

وقبل أن يفرغ من تدوين اسمه ورقم هاتفه على ورقة اقتطعها من مجادليل الهاتف كانت المرأة تنسل من بين مجالسيها فعلا، تنسحب من عالمهم، وعندما يأتيه وقع خطواتها على الخشب يلتفت مبتسما. فترد على بسمته، ثم تغمره بعينيها. يمد يده بالورقة فتأخذها منه وتمضي، بينما يعود هو إلى مائدته.

تتوقف هي عند آلة التليفون، تدير رقما، تتكلم، تضحك، ثم تطبقه وتعود.

تم كل شيء بسرعة، وكانت الرؤوس ذائبة في زهر البنفسج، ولم يحس أحد بما تم.

المرأة تستخرج الورقة وتقرأ الاسم ورقم التليفون، ثم تعيدها إلى حقيبتها وترميه ببسمة كبيرة.

يوسف يدخل الأغنية، يتوغل في اللحن، ويجهش من أجل المغني الذي رحل باكراً.

الليل يتعدي منتصفه، ورغم قلة الرواد فإن الحيوية التي خلقتها الفرقة الصغيرة لم تجعل الرؤوس تتمني وسائدها الدافئة، تذبح قنان أخري، تتخدر الرؤوس وتكبر، يغزر المطر، بعنف غضب البحر.

الرجل الغريب يعود مطئنا وكذلك المرأة التي تجلس بمواجهته ويدها ترفع كاسها إلى أعلى نخباً.[11]

[11]من مجموعة (نار لشتاء القلب).

هناك في تلك المدينة

(1)

كسيت المدينة بلون رمادي شاحب فبدت وكأنها مشيدة من الرمل، حتى خضرة سعف النخيل فقدت نضارتها من حدة لسع الشمس وتراكم الغبار الذي تجرفه الريح من المساحات الشاسعة الخالية من أي زروع التي تسور المدينة من جهاتها الأربع.

الشمس نهضت ساخنة حادة رغم أن الظهيرة لم تقترب ورغم أن أيام الصيف الأخيرة تتهيأ للرحيل، وكان الضجيج يملأ شارع "الحبوبي" الذي كان أسمه شارع الهواء ذات يوم نظراً لسعته وامتداده.

وقف خالد قرب عمود كهرباء مجيلا نظره في المكان محاولاً أن يستجمع ما بقي في ذاكرته منه ولكنه لم يستطيع أن يلتقط شيئاً، كان كل شيء قد تغير، هدت بيوت وشيد غيرها، كما بنيت دكاكين جديدة سيطرت على أغلبية الواجهات.

قبل ثلاثين سنة كان خالد طفلاً متطلعاً، في عينيه تبرق أحلام وخطواته التي تقطع دروب هذه المدينة كانت تشي بأن صاحبها سيغادر يوماً وأنه لن يتآلف بسهولة مع أشياء هذه المدينة التي لم يكن يعرف مدينة غيرها يومذاك.

كانت حكايات جدته تأخذه إلى عالم في الخيال ظل أبداً يبحث عنه في سنواته اللاحقة التي تسكع فيها على أرصفة مدن بعيدة صحبة نساء لم يحلم أنهن سيرددن على تحيته مرة، فكيف إذا امتلكهن بسهولة وعاش أعوامه معهن في غرف خافتهة الأنوار؟

قبل ثلاثين سنة كان يخطرهنا، يحمل كتبه في كيس من القماش ويدس دشداشته المقلمة في بنطلون الرياضية الأسود ذي الشريطين الأبيضين على جانبيه. تذكر أن شارع الهواء كان يبدو له عريضاً.. وأنه كان يتسع لشريط من أشجار اليوكالبتوس والصفصاف تزين وسطه وعلى كامل امتداده من محلة الصابئة حتى المستشفى.

تساءل مرة: لماذا ضمر بهذا الشكل وتقلص فخنقته الأبنية وأجساد المارة والسيارات وأعمدة الكهرباء وواجهات الدكاكين وأقفاص الخضروات؟

كان طويلاً وعريضاً، البنايات على جانبيه واطئة لاتمنع الريح من اللعب في إبهائه ومعانقة أشجاره السابقة.

أما الآن، فالعفونة تفوح منه والعرق المتفصد على الجباه لن تبخره ريح رغم أن أيلول في منتصفه، وتساءل خالد أيضاً ماذا لو جئت في آب؟

كان خالد يقطع الطريق من بيته القريب من المستشفى إلى المدرسة الشرقية في الطرف الآخر، ورغم أن المسافة بعيدة لكنه يقطعها بدقائق مع

فوج من أصحابه الذين يتقاطرون من الشوراع والأزقة المجاورة ليسلكوا شارع الهواء فهو وحده الذي يحظى بعناية خاصة من قبل البلدية وحده الذي ما إن يصيب التلف مساحات منه حتى يعاد تبليطه من جديد على العكس من الشوراع الأخرى التي تغرق بالوحل والمياه الآسنة.

قبل ثلاثين سنة لم يكن المارة كثيرين، لكن أوقات المساء تجعل الشارع يحفل بمجموعات من المراهقين الذين يرتدون أحلى ثيابهم ويطلون شعورهم بزيت ماركة "الريل كريم"، لتلتمع عل ذلك يلفت نظر المراهقات اللواتي يخطرن في الشارع أيضاً، ملفعات بعباءاتهن، حيث تنسج النظرات حكايات حب صامته سرعان ما تنتهي بالزواج أو الانتحار.

(**2**)

إنني أقف على أرض عرفتها، أرض أصبحت في الذاكرة مثل وشم بدوي، أرض كنت فوقها كواحد من هؤلاء الصبية الذين أراهم يتصايحون وهم يركلون كرتهم المطاطية، كنت مثلهم ضامراً محترق البشرة من الشمس والتعب والغبار.

انبثقت كل تلك السنوات الغائبة بوجوهها وأحداثها، ووددت أن أندس مع هؤلاء الصيبة فأركل الكرة وأصرخ علني أستعيد طفولة أضعتها، طفولة سرقت مني بالتشرد والحسد والخيانات والقهر والخوف والأمجاد المحتضرة.

كان حلمي المبكر أن أرحل، أفسدتني حكايات جدتي عن رحلات السندباد وأفسدني والدي الذي يحمل عصاه ويمضي وعندما أسأل أمي عنه تقول: سافر لكنني لا أدري إلى أين؟ وحتي لو نطقت باسم مدينة فإنني سأنساها ما لم ترتبط عندي بمكان محدد أعرفه.

لكن رحلات أبي قصيرة، سرعان ما يعود بعدها، أطولها يوم ذهب إلى الحج على ظهر ناقة وعندما عاد كان يحمل التيفوئيد في رأسه وكاد أن يموت لولا رحمه الله. كما أخذ يردد آنذاك، أما رحلتي عن مدينتي هذه فقد دامت ثلاثين سنة.

(3)

تحرك خالد من مكانه بعد أن انتبه إلى مرافقيه الثلاثة، اثنان منهم رفيقا طفولة، بقيا في المدينة ولم يغادراها فقضت عليهما هرماً وتعبا وأولادا، هاتف ازدادت قامته الطويلة ضموراً وانسحب من دكانه الذي كان يصلح فيه كهرباء السيارات بحذق ولدته الممارسة الطويلة، لكن نظرة خانه ونظارته التي ازدادت سمكاً لم تفلح في جعله قادرا على تشخيص عطب السيارات، انسحب إلى بيته ليظل فيه طيلة نهاره مرتدياً دشداشته البيضاء بينما تراقص أصابعه مسبحته الثمينة. أولاده صاروا موظفين في دوائر الحكومة، لذا ارتسم الرضى على وجهه ولم يعد يهتم بحلاقة ذقنه فأطلق لحيته بشعرها الأبيض الناتئ كالأسلاك.

أما عباس فمازلت قامته تميل إلى الامتلاء لكثرة ما يكرع من زجاجات البيرة، شعر ابيض كله وتسرب البياض إلى حاجبيه فغادرهما سوادهما الفاحم.

لم تكن لعباس حكاية منذ أن التقى خالداً إلا حكاية الألف دينار الذي أصبح يمتلكه ومادام عباس لا يؤمن بالبنوك ولا يدري لماذا هي مفتوحة فإن ألفه مخبأ في بيته.

قال:

- عمري خمسون سنة، أنا أكبر منك ياخالد، كنت في الصف السادس عندما دخلت أنت المدرسة، ولكنني لم أمسك طيلة سنوات عملي بأكثر من مائة دينار دفعة واحدة، كان راتبي ناقصاً دائماً، وكانت هناك استقطاعات مستمرة منه، تبرعات، غرامات، إلى اَخر هذا. وفجأة أصبح عندي ألف دينار، إنه لي وحدي وليس هناك في المدينة دائن واحد ينتظر أن أسدد له دينه، أوراق نقدية من فئة العشرة أو الخمسة أو العشرين، كلها لي، أندري ماذا كنت أفعل كل مساء؟ إسمع، لم أعد أذهب إلى ناد، أحمل زجاجات البيرة في كيس من السوق وأتوجه إلي البيت، وبعد الزجاجة الثالثة أطلب من زوجتي أن تحضر الألف فأبدأ بعده، مرتين، ستا، عشرا تسلية عظيمة ما بعدها تسلية.وعندما أتعب أطلب من زوجتي أن تخبئ النقود، منذ أسبوعين وأنا على هذه الحال، ومرات وبعد الزجاجة الخامسة أجدها

ناقصة أو أجد فيها زيادة فتضطر زوجتي لأن تعدها بعدي وهي تردد:

- إنها في مكان أمين لا تمتد إليه يد، فمن يأخذ منها؟ ومن يضيف إليها؟ كان على رابعهما وهو شقيق خالد الأصغر ورغم مرور كثير من الوقت إلا أنه لم ينبس بكلمة، كان يحترم ذهول خالد، على هذا تخطى العشرين من عمره، واكتنز وجهه بالرجولة وزاده وسامه شاربان كثان يتهدلان على جانبي فمه، لكن علياً يسند قامته القوية بعكاز بعدما فقد ساقه في معارك "المحمرة"، لقد انفجر لغم تحت عجلات السيارة التي كان يقودها، وفي عملية جراحية قرر الأطباء بتر ساقه وظل راقداً في المستشفى العسكرى عدة أشهر.

الأربعة معا، كأنهم مفتشون حكوميون جاءوا يلاحقون مخالفة ما، وشارع "الحبوبي" االذي كان شارع الهواء مازالت تعيث في رأس خالد وهو يتحرك بحماس أكبر من مرافقيه.

(4)

علي بعكازه أكثر دقة في مراقبتي، أما عباس وهاتف فقد غرقا في حديثهما المازح الذي يختزنان وقائعه لكثرة ما يجتمعان سوية على مائدة واحدة كل ليلة ومنذ ثلاثة عقود من السنوات، ولم يجتمعا يوماً إلا ويبدأ

حديثهما بما، يواجههما من مشاكل. خاصة ما يتعلق منها بأبنائهما الذين كبروا وتزوجوا وانجبوا.

كان علي بجواري تماماً، يحاول أن يسرع في خطوة رغم الجهد الذي يبدله حتى يحقق ذلك والعكاز لا يسعفه، لكنه كان يمني النفس بالساق الاصطناعية التي ستوضع له فتجعله يستغني عن هذا العكاز.

في مدخل السوق لفتت نظري قطعة كبيرة سوداء (الشهيد المقاتل محمود حسان الظاهر استشهد في قاطع البصرة بتاريخ (**1987/7/22**). وتوقفت عند الاسم اسم الوالد بالذات، فقد كان زميلي في المرحلة المتوسطة، والتفت إلى علي وسألته:

- هل هذا هو ابن المحامي حسان الظاهر؟

فقال علي:

- نعم.

وهنا قلت:

- هل مازالت في بيته نفسه؟
- نعم، والقطعة على جدار البيت، الباب من الجهة الأخرى، وأضاف موضحاً أكثر:
- لقد أعاد بناء البيت وتغيرت معالم السوق، لكن مكان البيت هوهو.

وهنا اقترحت عليهم أن ندخل لتعزي زميلي القديم المحامي حسان الظاهر، وأيدني عباس وهو يقول:

- فكرة عظيمة.

وأضاف هاتف.

- بارك الله فيك.

ثم عاد صوت عباس ليقول:

- أولادنا، أشقاؤنا، مشاريع شهداء في هذا الحرب الملعونة.

ثم واصل بعد توقف قصير مخاطباً خالداً:

- هذا أخوك على كان من الممكن أن يكون في عداد الشهداء. الآن ولكن الرب حماه.

وظل على صمته، استدرنا بخطوات أبطأ نظراً لازدحام السوق بالمارة رغم أن الوقت مازال مبكراً وعندما وصلنا البيت أشار على بيده إلى الباب فسبقتهم لأضغط على الجرس.

(5)

الحر يغتال صباح المدينة، وجسد خالد وأصحابه مزال يطوف في شوارعها، ولم يستثن "الصفاة" ذلك السوق الشعبي المكتظ ساءه أن الحفر الأسنة قد كثرت فيه وهجرت دكاكينه ولم يعد فيه إلا باعة السمك والدجاج، وعدد من القرويات القادمات لبيع سلال التمر، وباقات الخضروات الصيفية.

ثم عادوا إلى شارع "الحبوبي" وساروا فيه صعوداً إلى السوق حيث دكاكين صاغة الذهب والفضة.

توقف خالد فتوقف أصحابه منتظرين ما سيبوح به، قال:

- هنا كان دكان مدلول كامل، وجواره دكان فالح صيهود.

وقال هاتف:

- لقد مات الاثنان وورث مدلولاً ابنه، أما فالح فقد باعت زوجته الدكان إذ ليس هناك من يديره بعد وفاته.

لم يواصل خالد هذا الحوار إذ سرعان ماقفز إلى ذهنه وجه عبد الواحد الذي كان يصحب والدته إلى دكانه ليصوغ لها حليها الفضي، فهي ترى التحلي بالذهب حراماً، وهب قائلاً:

- ألم يكن دكان عبد الواحد هناك؟

وقال علي:

- نعم ومازال.
- وردد بشيء من السذاجة:
- ألم يمت بعد؟

وتمتم هاتف:

- لكنه بلغ من العمر أرذله.

وخطا خالد كالمهرول عبر الشارع ثم توقف أمام باب الدكان الذي يقع على ناصيته.

دكان مظلم، في وسطه مليئة ببقايا رماد. كان عبد الواحد يستعملها كمصهر للفضة، وتذكر خالد أنه كان يقف في نفس مكانه هذا هو وفوج من أصحابه ليتطلعوا بفضول إلي ما يصنعه، وعندما يرفع رأسه ويراهم يصرخ بهم. ياالله امشوا، خلونا على باب الله. وعندما لا يمتثلون لما أراد يهب واقفاً ليطاردهم في السوق وهو ينزل الشتائم على من أنجبهم ولم يربهم.

تطلع خالد إلى أعماق الدكان، واحتاج بضعة ثوان حت تتالف عيناه مع ظلامه، كان عبد الواحد مكوماً على الأرض وقد تناثرت في دكانه أدوات الصياغة والصهر وتراكمت عليها الأوساخ ومزق الجرائد.

كانت ساقاه مثنيتين بشكل عمودي، وثيابه الداخلية عريضة بحيث تكومت أعضاوه التناسلية على أرضية الدكان، أما عيناه فمنغرستان في الفراغ ويبدو على وجهه ذهول غريب.

لم ينتبه إلي خالد ولا إلى أصحابه الذين التحقوا به ممتثلين لرحلته المبكرة هذه في أسواق المدينة، قال عباس:

- هذا عبد الواحد، من يصدق؟

وقال هاتف:

- قاتل الله الزمن انه أكبر عدو للإنسان.

دار الحديث ومازال عبد الواحد في غيابه، وعاد عباس إلي القول:

- لقد استشهد ابنه الصغير، كما أسر حفيده الوحيد.

وهنا رفع خالد صوته ونادى:

- عمي عبد الواحد.

فرفع رأسه منبهاً لمن يناديه باسمه.

- نعم.

ورفع خالد صوته أكثر وهو يسأله:

- هل أجد عندك مصاغات فضية قديمة؟

وردد دون أن يدير وجهه صوب السائل:

- لا والله، الناس لاقمتم بالفضة اليوم.

كان صوته متحشرجاً مقتولاً. نطق بالجواب ثم صمت ملتقطاً مروحة يدوية وأخذ يحركها أمام وجهه.

ألقى خالد نظرة على الصندوق الزجاجي الذي يتصدر الدكان وقد تآكل هو الآخر وامتلأ زجاجه بالرضوض والكسور، وسكنه الغبار وتوسد بعض الأواني والمباخر الفضية والنحاسية التي وضعت فيه وهي كل ما يعرضه وينتظر بيعه.

قال عباس:

- أنه يأتي لدكانه بحكم العادة فلم أره يبيع أو يشتري شيئاً منذ سنوات.

انسحب خالد من أمام الدكان فلحق به رفاقه وراحت خطواقم تضرب في أزقة أخري من المدينة المحتلة بالحراره والغبار، كان خالد وحده من يتطلع إلى الوجوه والواجهات فكانه يبحث بينها عن شيء أضاعه ذات يوم، شيء لا يستطيع أن يضع له ملامح ولا أن يحدد اسمه، فقده وانتهى الأمر، وخطواته الضاربة في أزقة المدينة تحاول أن تعثر على أثر، لكن الحرارة تتصاعد والتعب بدأ يستوطن الصدور.

انسربوا ليدلفوا إلى مقهى مكتظ، وكان عباس يردد:

- لم أشرب شايا هذا اليوم، وبقايا صداع الرأس لن يقتلها غير الشاي، أحسنتم عملاً بالجلوس هنا إذ إنني لا أدري ماذا يريد خالد من كل هذه الدوخة؟

أما خالد فمازال ضائعاً وتظاهر بأنه لم يسمع ما فاه به عباس.[12]

[12] من مجموعة (السومري).

ثرثرة على مائدة الملك الضليل

الأمر يعرض دونه الأمر

ـ مثل عربي –

بقبقة في زقزقة

ـ مثل عربي –

(1)

الأيدي تتشابك، حصان يجمح، يصهل، يتزلق كأطلاقة ملساء، الأرض الخضراء، والعيون المرتقبة، العاصفة القادمة والطيور الخافقة بأجنحة من حرير.

يصطف هيكل في رأسه بقية من خمرة البارحة، في الفم بخار ماء، ينقذف عند التأوه والكلام، رجال آخرون. ونساء أخريات، سيارات وعابرون.

- أنا هنا منذ السادسة صباحا، حتى فطوري جلبته معي، في مثل هذه السن ماذا تتصور طعامنا؟ قطعة خبز وقليل من الجبن وكثير من الشاي مع أنه يضعف القلب كما يقول أطباؤكم.

- كل هذا من أجل كيلوين من الطمامة؟

- ماذا أفعل؟ زوجتي ستقطع عنقي أن تأخرت عن ذلك.

- على الحكومة أن تزرع المزيد، قبل سنوات كانت الطمامة مثل الزبالة تجدها في كل مكان، أما اليوم فعليك أن تضيع

نهاراً بطوله حتى تحصل على كيلوين منها، الحمد لله أنني متقاعد الآن.

-

- أما أنا فعلا، مازال أمامي عشرون عاما من الخدمة.
- وماذا تعمل الآن؟
- في دوائر الحكومة.

(2)

زحزح جسده المخمور من مكانه، ونهض متثاقلاً، وخطا باتجاه الغدير، كانت الشمس تلسع عينيه فيجد صعوبة في فتحهما.

خلع نعليه ثم غطس قدميه في الماء لتبتردا، وبدأ يطلق أصوات تلذذ وراحة بينما يمتص الماء السخونة من قدميه.

هب صاحبه مناديا:

- يا أبا الحارث، الأولى بك أن تخلع ثيابك وتدخل الماء.

يتنحنح امرؤ القيس ثم يتمتم ونغمة التلذذ مازالت ممسكة بصوته:

- اقترح مقبول، ولكن على بجارية لتدلك لي ظهري.
- ألم يكفك ما فعلنه بك في الليلة الماضية؟
- وهل هناك أروع منهن؟

ثم شهق ورفع رأسه إلى السماء متأملا طائرا متوحداً يخفق ضالا في السماوات الصافية:

- أي هم جميل نحمله دوما عندما تداهمنا عيونهن؟ أخ يا صاحبي رغم صداع الرأس من كثرة الشرب والغناء والمطارحة فإن صدري منشرح، عروقي معبأة برائحة المسك، أماتت حاسة الشم عندك؟ تنفس ملء صدرك وستري البرية كلها وقد تعطرت بالطيب كأننا لسنا في هذه الفلاة، بل في بستان غاص بزهور القرنفل.
- ما أجمل كلامك يا أبا الحارث!

(3)

- أتريد الصدق؟ الحكومة لم تقصر، لقد جاءت بالطماطة من كل مكان، لكن نحن لافائدة منا، ثلاثة صناديق، أحلف بأولادي، جاري جاء بثلاثة سوية ووضعها في هذه المصيبة التي يسمونها مجمدة، قلت له مداعبا: هل افتتحت مطعماً؟ فلم يعجبه تعليقي ومنذ ذلك اليوم انقطعت العلاقة فيما بيننا، حتى في العيد لم ير أحدنا الآخر.

ويشير الثاني:

- انظر هذه العجوز الملساء، لقد اشترت صندوقا كاملا، اذهبي به إلى القبر، إلى جهنم، انظر، ستصاب بالسكتة القلبية، ولكن من يساعدها في حمله سألعن والديه، دعوها تمت.

ثم ينظر في ساعته ويقول:

- لم يبق لي مجال للوصول إلى الدائرة.

- يا أخي، وهل ستتوقف الأمور عليك؟ من يراجع ولا يجدك يقولون له تعال غداً وأبوك الله يرحمه.

- لنا مدير يقصم الظهر، ثم التوقيع، كل المصيبة من التوقيع.

- وهل تعجز عن إيجاد عذر؟ عندما كنت موظفا موت أبي تسع مرات وأمي عشرين، هذا إضافة إلى أعمام لا عد لهم وخالات كذلك.

- إن لم أحصل على الطمامة سأنتحر.

(**4**)

- أنظر القوم يغطون في نوم عميق، أراهم كالقتلي، فماذا لوهوجمنا؟ وضحك أمرؤ القيس ساخرا وهو يشمر عن ساعديه ثم ينحني ليحفن الماء ويغسل به وجهه، ثم يقول:

- ويحك يا ابن العم، هل هناك من يجرؤ ويتقدم إلى هنا؟ إن سلطاننا يمتد أبعد من ديار بني أسد، إلى الحيرة وما بعدها، فأنى يولي وجهه من يحاول الاقتراب من مضاربي؟

- كنت أداعبك.

- إن مجلسنا يعلن عنا، أينما حل امرؤ القيس حل الغناء والطرب وعزف القيان وغناء الجواري.

وبعد أن انتهى من غسل وجهه انسحب من الغدير وظل يخطو باتجاه نخلة فرش العبيد في ظلها الفرش وألقوا الوسائد، فانطرح على ظهره وأخذ يتأمل سعفات النخلة المنبثقات من قلبها بحنو أخاذ وتمتم بصوت مسموع:

- ما أروعك أيتها الأم الحانية؟

وفتحت جارية كانت ممدوة على مقربة منه عينيها ثم حيته، وبش في وجهها ثم دنا منها، فمدت يدها لتطوق عنقه وهي تهمس في أذنه:

- ما أعذبك يا مولاي!

وتنشق عطرها وهو يقبل ذراعها العارية، ثم أركن رأسه إلى صدرها وأغمض عينيه.

ما الذي أيقظك؟

- لابد وأن أعانق طلة الصباح، إنها تشعرني بالحياة، تلهمني بالكثير من معانيها.

- هيا نم يا مولاي، ما الذي يهمك من أمرها؟
- من هي؟
- الحياة.

- أيتها اللعينة لولا اهتمامي بها لما كنت هنا، إنني أحياها بكل دقائقها، لقد فرش الحارث جدي ملكه على كندة كلها فما الذي حفيده الأصغر؟

(5)

ضم الكيس إليه، وملأ صدره بالزهو، العيون تتطلع إليه بحسد، هذا واحد خرج من طابور الأسري المصلوبين منذ ساعات الصباح الأولى، وأخذ يردد:

- أعطوني الطريق، ثيابكم عن الطمامة.

وعلى الرصيف كان المتقاعد واقفا.

- بالخير والبركة.
- شكرا.
- كم كيلوا اشتريت؟
- أربعة، أتدري لو كان الأمر بيدي لاشتريت عشرة صناديق ووزعتها في كل أرجاء البيت حتى أخرس لسان زوجتي.
- حسنا فعلت، أما أنا فاشتريت ستة، الباقي ستصنع منه زوجتي معجونا.
- ولماذا هذا المعجون؟
- تأتي ساعته.

- في أمان الله.

ويواصل ضم الكيس إلى صدره وهو يرتصف في موقف الباص، نظر إلى ساعته فأطلق شتيمة عالية ثم أعلن:

سأحمل الكيس معي إلى دائرة وأمري لله.

(6)

ووصلت عناقها له، ويتسرب صوتها بمواء شبق، تسحبه اليها أكثر، عيناه في قلب النخلة، ثم في الفضاء الطليق الخالي، ثمة غيمة بيضاء بعيدة، ووحيدة كالطائر الذي أخذته السماوات، البرية صامتة عدا غيطيط بعض النيام المنطرحين.

- ألم تكفك معركة البارحة؟

تعضه من وجنته فيهب صارخا:

- أيتها الظبية الشرسة، سأنادي على أحد العبيد ليطفئ نارك.

- لا، أرجوك يا أبا الحارث.

ويعود ليضع رأسه على صدرها، سعفات النخلة أكثر زهوا، والغدير يزداد لمعانا من معانقة صحوة الشمس، يحمحم حصان أصهب، ويخطو

بإتجاهه عبد مخمور، وتتحرك ناقتان إلى حافة الغدير، تملآن جوفيهما بمائه البارد ثم تنسربان لإلتقاط العشب والعاقول.

لتتناحر القبائل، ولتحز الأعناق، ثمة فرح لاينتهي، وأمجاد تفتح، وأخرى تزول، الرجال والنساء، اليتامى والمحزونون، الكسب والاندحار.

- نهاري صيد ولعب، وليلي شراب وطرب، يدور موكبي في البراري، وكلما صادفت غديراً نزلت عنده، ولا أغادره حتى يجف ضرعه.

لكن غديرنا هذه المرة كبير، ولن ينتهي ماؤه بهذه السرعة؟

حقا لقد جادت السماء هذا العام وأعطت الكثير. لكن الصيد مفقود، لا أدري أين ولت الغزلان والأرانب؟ ولاتنس بأن خمرتنا على وشك النفاد لذا علينا أن نتهيأ للرحيل.

(7)

فتح درج مكتبة، وحاول أن يضع كيس الطمام فيه.

ولكنه لم يسعه.

نط أحد زملائه في الغرفة متسائلاً:

- ماذا تحمل معك؟

- طماطة.
- بسم الله الرحمن الرحيم.
- إذا لم تصدق هاك خذ.

ومد يده والتقط واحدة ثم رماها إليه، فأمسك بها وأخذ يمعن النظر فيها.

- الله، إنها طماطة ممتازة! حقا إنك رب بيت عظيم، وأنا واحد من الناس سأجعلك مثلي الأعلى عندما أفكر بالزواج يوما.
- إياك!
- ماذا تقول؟
- أحذرك، ابق هكذا أحسن لك، لا طوابير، ولا مطاردات أصحاب الدور ولا....

ونط زميل اَخر: كلامه ذهب.

- اليوم عشرة في الشهر وأنا لا أملك غير دينارين، البارحة جئت بعامل كهرباء، لا أدري ماذا في الثلاجة من عطب، ولكنه صلحها بنصف ساعة، وأخذ مني سبعة دنانير فتخلخلت كل ميزانيتي.
- سبعة دنانير؟

- نعم، وقال من غيرك أخذ عشرة، قلت له يا أخي أنا درست وتخرجت من الجامعة وأخدم في الدولة منذ خمسة عشر عاما ولم تصل أجرتي لنهار كامل أكثر من ثلاثة دنانير فكيف أنت؟

وعلق صوت رابع:

- على الحكومة أن تتدخل وتحمينا من هؤلاء، هذه سرقة، لصوصية.

- قبل أيام قلت لواحد صلح لي سيارتي أعطني أربعة دنانير في اليوم، وسأكون في خدمتك أنا وشهادتي وأجدادي أيضاً.

(8)

وطلب منهم امرؤ القيس أن يتهأوا للرحيل، وبدأوا يتحركون في أماكنهم ويسحب كل منهم ذراعه من تحت رأس جاريته.

- عليكم بالغدير فماؤه بارد عذب، لن يبقى من الكسل ولا الخمرة شيئا في الرأس، هيا جربوه، لقد صحوت قبلكم وغطست فيه.

(9)

- على أية حال شكراً على الهدية يالها من طمامة! انظروا حمرتها الصافية!

ثم سحب جسده القصير والبطين من وراء وزحف خارجا وهو يعلن:

- الفطور مجانا، لاسيما وأنا قليل الأكل هذه الأيام، سأغسلها وأعود، دقيقة واحدة فقط إن سأل أحد المراجعين عن معاملته.

(10)

هبوا راكضين باتجاه الغدير، والجواري يطاردهم ولم يتسن للبعض خلع ثيابه فارتمي في الماء بها. القهقهات تنطلق. امرؤ القيس يتأملهم منشرحا. يستحثهم لتجريد الجواري من ثيابهن. الجواري يما نعن فيبدأ الصراع. الشد والجذب. رذاذ الماء يتطاير ليرش هيكل أمرئ القيس المنتصب قريبا من الحافة.

الريح تعبث بأطراف جلبابه الفضفاض. جميل ومتألق في وقفته تلك، يواصل حيث الرجال على خلع ثياب الجواري.

- هيا اخرجوا لا فائدة منكم، لقد أتعبتكم دون جدوى.
- ولماذا العجلة يا مولاي؟ سيخلعن ثيابهن حتما، أما هذا العناد فللتدلل فقط.

- الخير في التمهل يا أبا الحارث، ربما تأتي قافلة طالبة الماء فيطل عليك من هودج فيها وجه يكون لك معه شأن؟

- وقد تتشبب به؟

- أيها الثرثار تعرف بأن أبا الحارث لا يكتفي بالتشبب وأنه طريقي للوصول إلى مخادعهن.

- قلت الحق ياسيدي، مادام هناك نساء فعلينا أن نطاردهن، وماأروع أن ينتهي الطراد في مخادعهن، آه ما أعذب الوصول إلى مخدع أمراة بعد لأي!

(**11**)

الأيدي تلوح والخناجر تلهج من قرارة الأعماق، العيون والأهداب، والأشباح والنصب، همز جوادك فينط من ركوده وانتظار، يتلقف تلك الفيافي الجلحاء، أنت مشدود إلى ظهره، تحكم ساقيك حوله، جداول وهضاب، مراع وصحو، ليل ونهار.

تفتح عينيك، تجهد في ذلك، القيد ينام في معصميك. يسورهما، السياط تلسع ظهرك، والأنين الجارح تبثه إذاعة الاندحار، لعين، مارق، ماذا فعلتم؟ لقد لعبتم لعبتكم، والآن انتهى دوركم، لا،لا، وكانت السماء ذابلة مدلهمة، اندحار الأمل، وضيعة الجهد. الانكسار يأكل قلبك، كان ذلك جرحا، كانت تلك مصيبه.

يحمل كيس الطماطة، ويحشر جسده في باص مكتظ. ابتعد قليلا، أرجوك، لماذا لا تستأجر تاكسيا؟ الباصات للبشر، للاوادم، وليست للاكياس، أرجوك عفوك، كنت مستعجلا ولم أجد تاكسيا، في المرة القادمة سأعمل بنصيحتك.

(12)

أراح أمرؤ القيس ظهره على جذع النخلة، السعفات قلب يتفتح، نافورة من الخضرة تروي ظمأ هذا الخلاء المقطوع، يسحب نفسا عبقا، يعبئ به صدره ثم يزفر بتمهل.

- لقد أضحكتموني كثيراً أيها الزناة.

جلس شاب من أصحابه على الرمل أمامه، ثيابه تقطر ماء، اللهاث يأخذه.

- ماذا يقول من يرانا؟
- وهل تملك أقوال الآخرين لهذا الحد؟
- أحيانا يا أبا الحارث، سمه نوعا من الفضول إن أردت.

ثم يصفن قليلاً، يمسح عينيه وجبينه من البلل.

- تعرف بأنني عاشق لشعرك ومقامك، وهذا سر تمسكي بك، منك تعلمت أشياء كثيرة، فتحت عيني على أمور كانت غائبة عني، تنطق ببساطة وحسن نية، وأمام هذا تصغر حكمة الكبار التي يريدون لها دوما أن تكون القدوة والمثل الأعلى.

يتميم امرؤ القيس من قلبه:

- ليس هناك أروع من أن تعيش، انظر هذه الفلاة، إن فيها رغبة عارمة للحياة لذلك لاتلبث أن تخضر حتى لو زارها قطرة مطر واحدة، أتذكر قبل أيام عندما مزرنا بها؟ كانت خواء ليس فيها غير قامة هذه النخلة، ولكن ها هي اليوم تزهو بالكلأ والغدران، هكذا يجب أن تكون قلوبنا يا ابن العم، على استعداد دائم للعشق والأخضرار.

صورة

عالم وردي، سحب وردية وجدران وردية كذلك، من بين الغيوم تنبثق ذراع مفتولة، تمسك بكأس كبيرة من النحاس، تريد أن تغترف من بركة بطل منها وجه رائع لحسناء تعوم في فرح وانتشاء، أغمضت عنيها قليلاً، وغاصت في رحاب الحلم، وثمة جرة كبيرة، أو دن من دنان الخمر مركون في الجهة اليمني من الصورة، وقد تناثرت حوله السحب، وهناك أيضا طيور ملونة وفراشات وأوراق ورد عائمة في البركة.

وتشكل أجزاء الصورة هذه مساحة لمرمي بصر عينين ثاقبتين لفارس يطل وجهه من سماء الصورة، وتبدو كل الأشكال وكأنها ملكه وتحت نفوذ عالمه.

يد تشير إلى الصورة، فم يتساءل:

- ولكن لماذا اللون الوردي؟

فم آخر يعلوه شاربان كثان تتخللهما شعيرات بيضاء يرد:

- إنه لون للحلم والفرح، هكذا أراده الرسام.

ويتواصل الحوار الثنائي:

- ألست ترى في هذه الاختيار فهما ساذجا للحلم والفرح؟ لماذا لا يكون هناك لون آخر؟

- من الممكن أن يكون، لعل اختيار هذا اللون وليد قناعة الفنان ومزاجه أيضاً.

- تبقى العلاقة بين هذا العالم وعالم امرئ القيس هل تجد هناك صلة ما؟

- بالتأكيد، ولكن ليس من الضرورة أن تكون هذه الصلة إعلانية، المهم أن هذه الصورة تضعني في ذلك العالم، ولعل هذا وحده كان ضمن إمكانيات صورة محدودة بمساحة معينة من الورق وضمن دائرة لون واحدة فقط.

وتوقف ذلك الحوار عند هذا الحد.

عالم

الفلاة واسعة، والقوافل تخط مساراتها بمحاذاة الغدران، تحط تارة في ظل واحة، وأخرى تقرب من نبع ماء. طبول وأغان، ابل وخيول وصهيل، حداء ونواح، وقصيدة ينبض بها القلب.

امرأة نشوى تسير متمهلة، تتوقف تارة لتسترد أنفاسها، وتمضي تارة أخرى، تتعثر خطواتها بكثبان الرمل، ولكن الصفاء لن يفارق عينيها، تورق البسمة على شفتيها وهي ترى امرأ القيس في مجلسه، يستند على ذراعه ويمدد ساقيه مسترخيا وبيده الكأس، أمامه تتلوى جارية ناعمة، تنط لينة وتهتز بحبور، يفتر وجهها عن بسمة أخاذة، ينهض امرؤ القيس، يقبلها ثم يعود إلى مكانه، تفجر قبلته في عروقها حياة وفرحا، وتعبق الخزامي في صدره فتتسع فرحة سكره.

- ما أروعها يا مولاي!
- كل امرأة لها روعتها المميزة، ولولا ذلك لما شغفت بهن كل هذا الشغف، منهن المتدللة المعزوزة، والناسية الناكرة، والمتمنعة المستجيبة، والغرة النافرة. والمتقلبة الهوجاء، واللعوب الباذلة و..

(13)

يصرخ الطفل في غرفته، تلكزه بكوعها، وتلح في ذلك فيفتح عينيه:

- ما بك؟
- الطفل، ألا تسمعه؟

يسحب جسده المرهق من رقاده ويجره إلى الغرفة الأخرى، يجده جالسا في سريره، وزعيقه ينبعث بلا انقطاع، يحمله فكيف عن البكاء، تحتضن يده البلل فينادي على زوجته، تأتيه ويبدآن بتبديل ملابسه.

ربع عرق ورأس من الخس، وأنت مقرور في غرفتك العارية، تضع معطفك على كتفيك منصتا لصوت الليل وتلألؤ اللهب في قلب المدفأة الغازية.

- إن لم تتزوجني سأقتلك.

وكانت تمسك بمسدس لا تدري من أين جاءت به، وعيناها تقدحان شرراً، تحجم عن قول شيء في البداية، كانت المفاجأة قد أخرستك.

- هل تسمع؟ أم أنت أصم؟
- هل أنت مجنونة؟
- كلمة واحدة وأرديك قتيلاً.

تتململ في جلستك، ترمي بالقلم من يدك، ترفع عن عينيك نظارة القراءة، ثم تقول بصوت ليس لك:

- حسنا سأتزوجك.
- ومن يضمن الصدق في وعدك؟

وأخرجت من تحت عباءتها مصحفا ووضعته أمامك وأمرتك:

- هيا اقسم..

وفعلت ما أرادته، كان ذلك قبل أعوام، لم يكن السبي قد حل، ولم يلف سماواتك البيضاء الليل الأسود. كانت نزوة. رغبة. محبة. لا تدري، لكنك امتلكتها في لحظة شوق نظاردتك.

وها أنتما الآن معا، كانت معك في ذلك المعتقل الرهيب، تحمل إليك الفواكه وسلال الطعام، وكانت تبكيك، تمنحك الأمل، وتحدثك عن الحياة الأخرى التي تدب في أحشائها.

أصبحت لك المعنى والمرفأ القريب.

(14)

ما الذي يبقى من تلك الأيام؟ وأي جرح ستخلفه في القلب والذاكرة؟ كلما أمسكت بذكري نبتت من حشاها ذكريات أخرى، تجوب خطواتي في ديار بني أسد، على إمتداد نجد، في رباها وسهولها، في شتائها وصيفها، وأبعد من ذلك إلى اليمامة والبحرين واليمن، وكل شبر أتنفس فيه رائحة الطريدة، الصبا الباهر والشباب الذي يوشك أن يروح،

في الحاضر وخز من الأمس، أصطلي به وأتعذب، لن يجعلني أرتضي بمكان، أو أطمئن إلى صوت غير صوت رغابي الجامحة التي تكاد أن تهدني، أحط رحالي هنا ثم أشده من جديد إلى مكان ما هناك، أتنفس ملء صدري لأواصل، حتى لاتهزل ناقتي، أو يطأطئ رأسه حصاني، سيفي يرقد بجانبي، أؤجله إلى المحن القادمة، ولكن هل هي قادمة فعلاً؟ إن جاءت أو لم تخبئ فأنا مهياً لها، أهلا بها.

تتقادم عهود، ولكن شموعها موقدة، تنوس أنوارها الخافتة كما تنوس أنوار الرهبان في دير صحراوي، تحوم حوله الظباء والوحوش، وتستكين للأفاعي وسروب القطا.

لكن لابد وأن تورق في العين دمعة، تنهمر في ساعة ضيق أو فرح، سيان ذلك..أوه..ما أصعب أن نفتح كوة في جدران الحزن الكظيم.

(15)

يخب الحصان، يتريث، عنقه في الأعالي، ثمة سعف متدل، أغصان، وعشب ينمو حتى يغطي نصف قامة الرجل. عواء ذئب مقطوع، وزقزقة طائر خلفه السرب، يبدأ الجواد رحلته، جياد أخرى، فرسان يستحثونها، الأكتاف للأكتاف، والغبار يغطي تلك القامات المهيبة، الفلاة والشمس والصحو الجميل، والحث المتوسل.

أنت تقبع، معك صحيفة ويدك تتناول فنجان القهوة من يد الرجل العجوز الذي دفعه البرد لأن يتلفع ببشماغه، ولم تخرج منه إلا عيناه، حتى سعاله يختنق هناك تحت القماش، تشكره وتعود إلى صحيفتك.

ها هو يأتي، وجه قديم، من أيام الحلم والنضال، ضمتكما غرفة واحدة في المعتقل يوما، وتناوب جسد أكثر أما في التعليق بالمروحة الوحيدة التي كانت معلقة في وسطها. دخل أنينك في أنينه. كنتما جرحا واحداً، وصيحة ألم واحدة، قطعت قميصك لتضمد أثر السياط الدامي على جسده المعلول، وفعل ذلك معك عندما تخلى عن كمي سترته ليضمد لك جراحك أيضاً.

ها هو يأتي، من ظن أننا سنحيا؟ ونختلف أيضا؟ يجلس بجانبك، إنه يطاردك منذ أيام، يريدك أن تعود للصفوف التي افتقدتك.

- لقد تزوجت وأصبحت مسؤولا.
- وأنا كذلك، والآخرون؟
- ثم إنني أعلنت براءتي، نشرتها في الصحف مع صورتي؟
- كان الطوفان كبيرا ولذا نعذرك فيما فعلت إذ لم تكن وحدك من فعل هذا.

(16)

- ألا تنهض يا مولاي؟
- دعني هنا بعض الوقت.

- أرى أن التأمل قد طال بك؟
- أتحرمني من تقلب صفحات كتابي المخبوء؟

الهوية

الاسم: امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن معاوية بن ثور.

الكنية: أبو الحارث، أبو وهب، أبو زيد.

اللقب: المللك الضليل.

خبر

قال الفرزدق: أصابنا بالبصرة مطر جود فلما أصبحت ركبت بغلة لي، وسرت إلى المربد فإذا أثار دواب قد خرجت إلى ناحية البرية، فظننت أنهم قوم قد خرجوا إلى النزهة، وهم خلفاء أن يكون معهم سفرة فاتبعت آثارهم حتى انتهيت إلى بغال عليها رحائل موقوفة على غدير، فأسرعت إلى الغدير فإذا نسوة مستنقعات في الماء، فقلت لم أر كاليوم قط ولا يوم دارة جلجل. وانصرفت مستحييا، فنادينني يا صاحب البغلة أرجع نسألك عن شيء. فانصرفت اليهن فقعدن إلى حلو فهن في الماء، ثم قلن بالله لما أخبرتنا ما كان حديث يوم دارة جلجل؟

(17)

نصف العمر يضيع في الطوابير، ما إن تنتهي من طابور الطماطة، حتى يكون في انتظارك طابور البيض. الله طابور البيض! مرات أقول أحتاج ثلاثة أيام حتى يصلني الدور، لكن ربك يفرجها، وبعد ساعتين أكون قد وصلت وحصلت على طبقة، أحملها على يدي وأخرج بها، ولكن في الأسبوع الماضي سقطت من يدي فكسرت ثلاث بيضات، قلت إلى جهنم، الله لم يجعلهن من حصتنا، للدود والقطط حقها أيضا، هذا أحسن، لكن في الصيف قد تجد البيض فاسداً فيضيع تعبك هباء، عندما كنت صغيرا كانت أمي رحمها الله تعرف البيض الفاسد بطريقة سهلة تأتي بإناء مملوء فترمي به البيض، التي تطفو منه فاسدة، أما اليوم فلاوقت لدينا لهذا، خذ وامش.

- ونصف العمر الآخر يضيع في ركوب أو انتظار باصات المصلحة، من باب المعظم إلى البياع ثلاث ساعات، أما إذا أردت الأعظمية فعليك أن تفكر بالمبيت هناك. لو بقيت في قريتي لكان ذلك أفضل لي من صداع الرأس هذا.

حديث يدور، تنصت إليه وأنت في الطابور أيضا، تنتظر دورك، زوجتك قالت لك اياك وأن تعود بلابيض، الطفل يحبه كثيراً، وبدونه أصبح جلداً على عظيم، يتدافعون بالمناكب، يتبادلون النكات، والهموم اليومية، وكنت يوماً تتدافع بالآكتاف أيضا، ولكن لغاية أخرى، وكان على فمك هتاف نصر، دعوة لاسقاط حكم مهترئ، أو دفاع عن قضية

عادلة، كانت العروبة حلما أبيض، حدوت بمحبته، ومنذ ذلك اليوم وأنت مغروس في الحمى.

(18)

- مالك أيها الفارس؟ كنت تنشد كل النساء وتتحدث عن روعة كل منهن المميزة لها، العذراء، وأم الأطفال، العربية والرومية، هذه أو تلك، فلماذا تستحوذ عليك "عنيزة" لهذا الحد؟

وأخذ امرؤ القيس يلتقط الرمل من الأرض ثم يذروه ببطء فتأخذه الريح، ثم يلتقط حفنة أخرى.

- لا بد أن نطأطئ رؤوسنا أمام حب حقيقي يوما.
- لست حكيما عندما أقول لك بأن ذلك لم يحدث إلا لأنها لم تستجب لك، ولو أنها استجابت لما استحوذت عليك إلى هذا الحد، ومضت كما مضت الأخريات، فاطمة، ليلي، أسماء، هر، ماوية، رقاش، و..
- كفى.

ثم صفع الرمل بكفه الكبيرة، وبعد برهة عاد إلى التساؤل المر:

- ولكن هل يطول هذا؟ انه أسر يجب أن أنتهي منه، أكره أن أخضع له طويلا.
- لو كنت في قلب عنيزة لأخبرتك.

ثم أردف وهو يبش في وجهه:

- لم أرها يا أبا الحارث إلا مرة واحدة، إن ابنه شرحبيل هذه قوية ملعونة، ما أكبر ثقتها بنفسها، أحسست بطغيانها على من حولها من النساء، ولعل هذا هو الذي منعها من الاستجابة لك حتى لا تكون يوما في موقف المستلبة المغلوبة على أمرها والباكية على حبيب خائن وحب موهوم.
- من أين لك الحكمة يا ابن العم؟
- من معاشرتك الطويلة، ثم أليس هكذا تفسر الأمور؟

وظلا صامتين ينظر أحدهما في وجه الآخر، سحب امرؤ القيس عينيه ورماهما في زرقة السماء وردد:

- من ينبئ عنيزة بأنني لا أريدها أبياتا في قصيدة فقط، بل دم في عروقي ونسغ في شجرتي التي تصطلي بالجفاف؟

(19)

يقلب أوراق المعاملات المكدسة أمامه، يحاول أن يستخرج أوليات كل منها ويدرجها في تقرير إلى رئيسه، مازال في عروقه نشاط الصباح، ويزيد في نشاطه هذا فنجان القهوة الساخن الذي ارتشفه قبل لحظات.

كان الموظفون الآخرون مهمومين بالمعاملات أيضا، وكانت القاعة الطويلة تعج بالمراجعين، لا فائدة من التأجيل فالمعاملات تطاردهم أينما حلوا.

- يا لك من موظف نشيط!
- سمني ما شئت، ولكن الناس تريد إنجاز معاملاتها بسرعة.
- ألا تجد الوقت يوما واحدا فتقبل دعوتي لنشرب كأسا في "الجندول" ونتذكر أيامنا؟
- وهل هناك داع لهذا.
- أكثر من داع.
- ما رأيك بإنسان لايريد أن يتذكر شيئا؟
- أنت تغالط، لا أحد يقدر على أن يلغي تاريخه، إن اختباءك في هذه الدائرة المنسية لا يعفيك من شيء.
- ألم تقل لي ذات يوم أن لكل منا دوره، فبعضنا يستمر والآخر يتوقف في أول الطريق، أو منتصفه، حسنا يا أخي أحسبني واحدا من الذين توقفوا.
- مازالت مصرا على أنك تغالط.
- هل أنت قدري! إنك ورائي ورائي أينما حللت!
- الولادة لابد أن تحدث هنا والأمل سيورق يوما، إلا تعرف أين وصلنا؟
- وهل هذا ضروري؟ انني لا أريد أن أعرف شيئا، أنا لا أقرأ حتى الصحف، ولا أسمع نشرات الأخبار، ولم أر من التليفزيون

إلا فيلم السهرة. هل صدقت؟! أسالني عن أسعار الخضار. والفواكه. وماذا في "أورزدي باك" الآن من بضاعة ستجدني خبيراً، أقول لك، اليوم والحمد لله السوق مليئة بالطماطة، تستطيع أن تشتري ثلاثة صناديق أو أربعة إذا أردت، خذ لك أجازة من عملك، ساعة واحدة تكفي لتتسوق ما تشاء.

يوم دارة جلجل

بدأت القوافل رحيلها منذ ساعة مبكرة، وكان يتقدمها بعض الفرسان على ظهور خيولهم، يتبادلون الحكايا والمداعبات وعيونهم تستقرئ الطريق.

توقف امرؤ القيس بعد أن قاد ناقته خلف كثيب من الرمل لقضاء حاجة، وعندما انتهى من ذلك ركب ناقته من جديد، وراحت تدب على الرمل بخفة وهو يستحثها لتلحق بالقافلة، وعندما لاح له موكب النساء والخدم الأحمال يسير متباطئا تباطأ هو الآخر، وترك عينيه تجولان بين الوجوه بحثا عن عنيزه، وأخذ يلح في ذلك حتى لاحت له، وعندما اقتربت ابتسم لها فأشاحت عنه وبدأت القهقهات الهامسة تسقسق في أفواه نساء الموكب، أطلق آهة ساخنة أودعها لوعته واكتوائه، لكنه لم يبرح مكانه، ناقته ترفع رأسها إلى أعلى لتجتر عاقولة انتزعتها من الرمل. تنتقل عيناه بينها وبين الموكب حتى ابتعد.

وورد موكب النساء غديرا إحداهن اقتراحاً:

- لقد أخذ منا التعب والحر مأخذهما، لماذا لانتزل الغدير فتستحم ونبترد؟

فوجد الاقتراح قبولا، وتحمست له عنيزة كثيراً.

"فتزلن في الغدير ونحين العبيد، ثم تجردن فوقعن فيه فأتاهن أمرؤ القيس وهن غوافل فأخذ ثياهِن فجمعها وقعد عليها وقال: والله لا أعطي جارية منكن ثوها ولو ظلت في الغدير يومها حتى تخرج متجردة فتأخذ ثوها".

(20)

أنت كل ما خرجت به، وربما أنالك أيضا، حصيلة وحيدة في عالم الامتلاء والأبواب العديدة، كنت الرجل الوحيد الذي بإمكانك أن تريه كل يوم، عدا تلك الجثة المنسية منذ أعوام التي ينتاهبها الربو والسعال والروماتيزيوم والبول السكري، جثة والدك الذي لم يبق له غير بصر كليل يسمح له بأن يعرف طريقه إلى المرحاض أو كوز الماء ففقده أخيراً، وظل سمكة ملقاه خارج الماء هناك حركة طفيفة تصارع بها لدقائق لعل يدا تمتد إليها فترميها بالماء من جديد.

وكنت رجلا قد خرج من كل معاركه وصفى حساباته القديمة ولم يبق له مايلتفت اليه، وراَك، كان ذلك النداء في عينيك يعطي للحياة الجديدة

ملمحا آخر، ويوما اقتحمت على غرفتي، وهناك أخذتك، كأنك متهيئة وقد جئت من أجل ذلك.

أنا وأنت، موظف فقير، يوزع راتبه الشهري إلى أبواب، وأنت تنصتين له، تطبخين له جيداً، وتفتحين له ساقيك متى أرادك، تحدثينه عن أحلام صغيرة، في بناء بيت بدلا من تهديدات مالك البيت الذي تحطان فيه، ومن أحلامك المؤجلة أن تعرفي السفر.

في سكرة رأس الشهر الكبيرة يغني لك، يفجر ينابيع نائمة، ويطرق أبوابا موصدة، يحدثك عن رجال ملثمين يقهرون الليل والعسس وعيون المخبرين، يوزعون المنشورات، ويترزعون في قلب المظاهرات العاتية، يفجرون الغضب، ويكبرون التحدي، رجال يقارعون النظام لكي يسقطوه ويقيموا بدلاً عنه نواه لحلم وأملا للأجيال القادمة، لكنهم أجهضوا، لم تبق أرض تحميهم، كانت الدبابات تحصد تجمعاتهم، والرشاشات تنخل أجسادهم الصافية البكر.

ها انتما معا، زوجان لهما طفل، والأحلام الأولى قد ضمرت، وإن لم يحتجب رفيفها في القلوب نهائيا.

(21)

ظللت أجساد الفتيات غاطسة في الماء، ولم يظهر منهن إلا رؤوسهن بينما بقي إمرؤ القيس متمتعا بهدوئه، وفي عينيه توسل أخرس ينادي عنيزه لأن تتخلي عن عنادها وتمنعها وتأتيه.

لابد وأن تخرجي، كفاك من هذه الكبرياء الجوفاء، من لجرح الملك الضليل غير عينيك ياابنة شرحبيل الجميلة؟ هذا التحدي سينطفئ في عينيك، وستخرجين إليّ، سأتملى الجسد الذي حرمت من نعمة عناقه، سأغتصبه، اَكله، اللعنة عليك، ماذا تقولين؟ هل ترثينني في أعماقك؟ ربما تقولين قد أضاع صوابه لذا شهر سلاح المفلسين، ولكنني راض بهذا الحكم، إنني واحد من أكبر زناة العرب، ألم يقولوا هذا عني؟ حسنا على الزاني ألا يواصل تأكيد زناه.

وعاد يستحثهن:

- من تريد ثيابها عليها أن تخرج.

قالت واحدة:

- أيها الداعر ما أقبح تصرفك!
- هيا اخرجي ودعيني أتمعن في طراوة كشحك.

وتحذره أخرى:

- سيقتلونك.

- ما دمت هنا سأجندل الف فارس ولا أسلمكن الثياب.

وتتمتم عنيزة بصوت يكاد أن يكون مسموعا:

- لم أصدق ما سمعته عنك في أنك مستعد لسلوك كل السبل حتى الخسيس منها لتصل إلى المرأة التي تريدها، من دلك على طريقي؟ لقد شهرت بي وقصائدك عني على أفواه المغنين والرعاة فكيف أوافيك بعد؟

وكزت على أسنانها وهي تهتف:

- لن أخرج، سأظل هنا حتى أفطس في الغدير.

وبعد أن طال بهن التوسل وطال به الإصرار أخذن بالتقاطر خارجات، كن رائعات، تلتمع سمرة أجسادهن تحت نور الشمس، وكأنهن مخلوقات إلهية انشق عنها الماء وقدمها هدية تبدد وحشة الفلوات الواسعة المصلبة من أجل الخضرة والخصب، ولكنه لم يبال بهن، أو يكلف نفسه بإلقاء نظره على أجسادهن العارية المضخمة بالمسك والقرنفل.

وبقيت عنيزة وحدها تنظر إليه بشيء من الوجوم الأبكم منتظرة أن يكف عن هذه اللعبة البائخة التي لم تتوقعها .

"فناشدته الله أن يطرح إليها ثوبها فأبى فخرجت، فنظر إليها مقبلة مدبرة".

- أهذا ما تريده؟

وكان في صوتها قرف ومقت. وهز رأسه وهو يجيبها بزهو:

- وهل هناك أروع من هذا؟

وظل يتملى الجسد الساحر، والجدائل الطويلة المخضبة بماء الغدير، وود لو ينط من مكانه ويمتلكها على الرمل وأمام الأعين حتى يطفئ حمى انتظاره واحتراقه.

زحزح جسده قليلا واستل ثوبها من تحت إسته وسلمه لها، فطأطأت رأسها وهي تتسلمه منه.

- أكان من الواجب أن تفعل بي هكذا؟
- وهل أبقيت لي عقلا أحتكم إليه؟ لم يبق لي من هم إلا أن أصل إليك.

ولبست ثوبها على عجل ثم تساءلت:

- وهل تعتقد أنك وصلت إليّ بهذا العمل؟ أم أنك ابتعدت عني أكثر فأكثر؟

ونهض من مكمنه ليطل عليها من قمته الشاهقة، بينما ترحب إبهاء صدره بأنفاسها.

- عنيزة أرجوك لا تظلميني أكثر، أنا أمير ولست نكرة منسيا، إنني أنشد منك ودا صادقا وأقدم لك قلبي على كفي فاقبليه مني.

وأحاط به الفتيات وهن يعاتبنه "إنك قد عذبتنا وحبستنا وأوجعتنا".

قال: فإن نحرت لكن ناقتي تأكلن منها؟ قلن: نعم. فخرط سيفه فعرقبها ونحرها ثم كشطها وجمع الخدم حطبا كثيرا، فأججن نارا عظيمة فجعل يقطع لهن من أطايبها ويلقيه على الجمر ويأكل ويأكلن معه، ويشرب من فضله خمرا كانت معه ويغنيهن".

(22)

هل يجمح حصان؟ يزنخر أولا، يهش بذيله ما علق بجسمه الأصهب من ذباب، ثم يستسلم لك وأنت تضع برذعته على ظهره.

الليل والتكالب، العودة الصعبة، العودة المترددة، ثم الانغماس النبوي، الصحو بعد موت طويل، اليأس بعد الأمل المترع، كان من الجائر أن تبدأ بعد انتهيت، لكنك فعلت ذلك، آمنت بك طول عمري، كما سترتك مع جراحي أنت المواسي والصادق، المتحدي وأنت معلق ثلاثة أيام، كنت تغني تارة وتغيب عن الوعي تارة أخرى، وكانوا يأتونك، مرة يجلدونك وأخرى يرشون فوقك الماء، الساخن جدا، البارد جدا، وكنت شامخا، رمزا ووثنا، أملا وقوة بقيت أنت، وانسحبت أنا.

عندما جاء حزيران أخذ البقايا، ولم يترك إلا أمه مسلوبة، مهزومة تائهة، صحوت أنت ولم تنسحب، واختبأت أنا، لا تبحث عني، إنني ضائع في الزحام، في طوابير مصلحة تسويق الخضر والفواكه، في طوابير

البيض، في محطات سير باصات النقل، في دائرة حكومية، في بيت من بيوت المدينة، فما الذي ذكرك بي؟

نطقت إحداهن:

- ما أروعه!

وتبعتها أخرى:

- وما أرق روحه!

وتساءلت ثالثة:

- ولكن لماذا تصد عنيزة عنه؟

قهقهة ورد من حنجرة جديدة:

- حتى توقعه وتشد إليها أكثر!
- ما أذكاك يا ابنة شرحبيل.

تقترب واحدة منه وتقول:

- لكثرة ما سمعت عن صولاتك ومجالس اللهو والشرب التي تحييها خفت حتى من ذكر اسمك أو التطلع إلى وجهك.
- والآن؟
- عرفت بأنهم قد ظلموك يا مولاي.

امرؤ القيس في ذروة سعادته، يقهقه لأبسط نكتة يسمعها، يلقم عنيزة بين فترة وأخرى قطعة من اللحم، جبال الجليد بينهما ذابت، لم تحتمل لفح الصحراء، مهدت السبل وسارت القوافل، وها هي العيون مترعة بالمعنى والحبور.

- يا عنيزتي قولي هل أنا في حلم؟
- لقد بدأت أطمئن إليك.
- ما أحلاه من جواب!
- قلبك عامر يا أبا الحارث، وفاتح بكنوز المحبة.
- جميل أنك بدأت تعرفينني.

وقطعت خلوتهما صحية فتاة:

- لقد نسينا أنفسنا فتاخرنا عن الذهاب إلى ديارنا، ربما ظن أهلونا أننا قد سلبنا أو حدث لنا مكروه.

وهبت الفتيات والخدم وبدأوا ينفضون عن ثيابهم الرمل العالق فيها، وانتبهت عنيزة إلى متاع امرئ القيس الذي رماه على الأرض، بعد أن انتزعه من فوق ظهر الناقة الذبيحة وتساءلت:

- وهذا المتاع من يحمله؟

قالت واحدة:

- سأحمل طن لحم، ناقته المسكينة مازال في فمي.

وردت عليها أخرى:

- سنتركه هو ومتاعه في العراء جزاء ما فعل بنا.

لكن ثالثة قالت:

- لننس كل شيء، كل ما حدث بسبب تمنع عنيزة أما أنا فسأحمل رحلة معي.

فقالت عنيزة:

- ها قد حلت المشكلة.

وهنا التفت إليها امرؤ القيس متسائلا:

- وأنت ماذا ستحملين؟
- لم يبق ما أحمله، لقد تقاسمتك قبلي.
- تقاسمن متاعي، أما أنا فمعك، ناقتك تكفينا فاردفيني وراءك.

وبش في وجهه وقالت:

- ما أغباني وما أمكرك!

(فحملته على غارب بعيرها، وكان يجنح إليها فيدخل رأسه في خدرها فيقبلها فإذا امتنعت مال هودجها فتقول: عقرت بعيري فأنزل).

فيرد عليها:

- ما أمتعها من رحلة!
- سأنزلك قبل أن نصل إلى مضارب القبيلة، وأتمنى أن يظل ما حدث بينا سرا.
- لن يهمني شيء إلا أن التقيك، فلا تكوني قاسية وتلجئيني إلى فعل قد أندم عليه.

فلكزته بكوعها وهي تسأله:

- وإن سألوك عن ناقتك؟
- وهل تضيع الأعذار؟ أقول فطست، لدغتها أفعى، نهشها ذئب.
- ولكن قد تفضح السر قصيدة؟
- سأخرس شيطان الشعر إن أراد الصراخ في رأسي.
- ألم يحاول ذلك منذ التقائنا عند الغدير حتى الآن؟
- إن أردت الصدق فإنه قد همس بأذني عنك، ورسم لي حروف القصيدة فإن كنت رابة سأسمعك إياها؟
- هيا، من يمد يده في النار عليه أن يتحمل لسعها.

يسورونني بالأيام تلك، يبحثون في مسامي عن أثر، وبين أضلعي عن ذلك العطب، إنني مرم وواقف، تأملوني إن أردتم ثم انسحبوا، دعوني أذوب في أمواج الآخرين، أندس في مقاهيهم، أمشي ويداي في جيبي، أصفر بلحن كان له وقع ما في قلبي، أرد على تحية صديق، أضيع.

- مازالت أصر بأنك مغالط.
- ما الذي تريده مني؟ عبثا تحاول أن تعيد الحياة لمن مات أنا خارج كل هذا، اسألني عن موعد الزيارة القادمة في مرتبي الشهري، بعد أقل من شهر سيأتيني دينار جديد به أستطيع أن أضيف زجاجة عرق جديدة إلى حصتي الشهرية.
- إنني غير مقتنع لهذايانك.

إنك تتلفع بمعطفك، تلتم حول نفسك، تسعل أحيانا، زجاجة العرق أمامك، ورأس الخس، وعلبة السكائر المحلبة.

تبدو كمنتظر عجل، يصلي من أجل أن يحين موعد القطار ليحملك بعيدا إلى مكان ما هناك، لم يبق معك مود ع، لقد ملوا الانتظار فانسحبوا، أما أنت فراكد لا يتحرك موجك الساكن ولا تلبط في أحشائه سمكة ضجرة.

الأب

قال الأب:

- لقد أحرجنا امرؤ القيس بين القبائل، كم مرة طلبت منه أن يكف عن قول الشعر والتشبث بالنساء، ولكنه لم يرتدع، وكان الزبد يعسكر على شفتيه.

- إن الشعر ليس مهنتة، بل مهنة البائرين والإنصاف، إنه أمير وسليل ملوك من أكارم العرب، فمن قاده إلى هذا السقوط المشين؟

ثم نهض واقفا مترنحا لا أحد يطيق صد غضبته:

- إنه يتعهر في شعره ولا يتستر، لا يتعفف عن وصف، ولا يكتفي بإيماء.

ونادى على تابع له وأمره:

- اسمع يا ربيعة، خذ امرأ القيس إلى موضع بعيد واقتله وأريد منك أن تنتزع عينيه وتأتيني بهما.

وعندما قرأ حيرة ربيعة وتردده صرخ فيه:

- هل بك صمم؟
- لا يا مولاي ولكن..
- اطع امرئ، هيا.

وانطلق ربيعة مع امرئ القيس واستودعه رأس جبل منيف، ثم ذبح غزالا كان عنده وانتزع عينيه وحملهما الوالد الذي كان قد صحا من سكره آنذاك، وعندما رآه صرخ فيه ملتاعا:

- اقتلته؟

وطأطأ رأسه وهو يجيب:

- نعم يا مولاي.
- أين عيناه إذن؟
- ها هما.

وفتح خرقة كانت بيده ليخرج العينين.

- يا ويلتاه: لقد قتلت ولدي.

وتردد ربيعة قبل أن ينطق:

- أتعدني يا مولاي بألا تحل دمي إن حدثتك بالحقيقة؟
- وهل أخفيت عني شيئا؟
- نعم.
- تكلم إذن ولك الأمان.
- لم أقتله ولكنني استودعته في موضع على رأس جبل.

(**25**)

عندما يكون الأمل مجسدا، جميلا كعمود من الفضة لا تملك إلا هرول صوبه، تحتضنه وتركن رأسك المحموم إلى قامته الصافية، الليل والجداول، القيود والمعسكرات، الطفل والزوجة، الرجال الملثمون والهتافات المدوية، طوابير الخضروات والبيض والموظفون الحزانى، الدائنون والأحلام.

يتحفز الجواد، يزنخر بحبور، تضع اللجام في فمه، السرج على ظهره ثم تقفز بخفة، وتتأهب لبداية أخرى.

السهول والهضاب، القحط، الأبناء الذين ولدوا وأولئك الذين سيولدون، النجوم والزوارق، الجياد والقوافل، أنت والآخرون.

عمود الفضة يتلألأ، لاتقاومه الأيدي ولا العيون تندفع الأقدام بخفة، تتسابق من أجل الوصول، أنت معها.

الوصية

يغرق في سكره وعربدته، وفي المساحة الممتدة أمامه تثني امرأة شهية، في عينيها شبق قبائل مجهدة ملت الحروب والغزوات، وفي وقع صوتها شقاء لكل الآمال التي عرفتها ضلوع الحيارى والناديين.

وبعد أن كلت من الرقص انطرحت ضاحكة فحط عليها امرؤ القيس، وزرع وجهة بين نهديها. كانت الحضور الوحيد إذاك وكل ما عداها غياب وفراغ. الندامى وقرع الدرايك والدفوف، الصيادون والظباء، القوافل والغدران، الليل والنهار.

وقف عند رأسه شاب مفتول وناداه بألم جريح:

- يا أبا الحارث.

ولكنه كان مخدرا مزروعا في وادي الطيب بين نهديها، فكرر الشاب النداء، فاستل امرؤ القيس رأسه من نعيمه ذاك، وحاول أن يفتح عينيه ليتعرف عليه.

- لقد قتلوا والدك يا أبا الحارث، وقبل أن يغمض عينيه اختارك من بين إخوتك لتأخذ بثأره.

فصفع امرؤ القيس جبينه مرات، وتمتم بحزن مريع:

- يا ويلتاه! يا ويلتاه!

ثم انتحب باكيا وبعد أن ارتوى من البكاء ردد: "ضيعني صغيرا وحملني دمه كبيرا"، وأردف والمرارة تكبر في حلقه: "لا صحو اليوم ولا سكر غدا، اليوم خمرا وغدا أمر".

الأمر

تمدد في الفلاة، عيناك تعدان النجوم، وأغنية الحقد لن يبرد لهيبها في صدرك، أيها الملك الضليل: لقد ولت عهود البطر والارتخاء، عهود الصيد والطراد، الكؤوس والألحان، وها هو الهم الثقيل يجثم على صدرك، ويحجب عن رئتك ذلك التنفس الخلي الذي عرفته يوما.

حصانك منتصب جوارك، وقوائمه مغروسة في الرمل، يمد رأسه ويتشمك بين فترة وأخرى ليتأكد من نبض الحياة فيك، ثم يرفع رأسه إلى أعلى ويحمحم بفرح وصلاة.

الشفاه والتطواف، الغربة والقتال، الوفاء والخيانة، الدم والعطش الحر والزمهرير، السنوات والأيام، ابتعاد الخطى وتضارب الأمثال.

تتقلب في مرقدك، يحمحم حصانك، تتحسس سيفك المطروح جوارك، تقربه منك، وتحتضنه، توسد رأسك على حديدة وتطمئن إليه.

الهم يتسع، يغرق أقواما وجحافل، لكن الرحلة مازالت في أولها ولم يلتق الخمر والأمر بعد.

الجرح في الضلوع يصل بلعنة، والأفاعي الشرهة تغريها برودة الرمل فيأخذها ليل الصحراء البهيم.

خبر

"يذكر الطبري أن ذا نواس الملك الحميري عندما هزم أمام إبرهة الحبشي همز جواده واقتحم البحر بأمواجه ولم ير ثانية، وهكذا كانت خاتمة آخر ملك حميري".[13]

---

[13] من مجموعة (الأفواه).

الفهرس

- الدرب العسير 5
- حفرة حيث لا أقمار 9
- أربع رصاصات متململة 15
- الأرض تدور 23
- الكبش 27
- المصعد 39
- صفحات منكسرة من تاريخ المدن التي إنتصرت 49
- صالة عرض 59
- حدث هذا في ليلة تونسية 71
- هناك في تلك المدينة 85
- ثرثرة علي مائدة الملك الضليل 99